قصص

أشباح الحواس

إبراهيم فرغلى

www.kotobarabia.com



إبراهيم فرغلى

أشبـــــــــــاح
الحـــــــواس

قصـــــص

خلف أشياء بسيطة
أخبئ نفسي لتجدني..
وإن لم تجدني..
ستجد الأشياء
ستلمسها،..
تلك التي لمستها يدي،
وستمتزج آثار أيدينا.

يانـس رتسـوس

مريم.. سيدة الهديل

لم يستطع أحد أن يقدم تفسيراً مقنعاً عن صوت الصراخ الشبق الذي يرتفع بعد انتصاف الليل من جهة الخرابة المتاخمة للعمارة المهجورة. ورغم كثرة التفسيرات، إلا أن أهل الحي قد أرجعوه في آخر الأمر إلى الأشباح التي تتطاير من أعماق المبنى المهجور لتهيم في أرجاء الخرابة مصحوبة بنعيق البوم الذي لا توقفه غالباً إلا التراتيل الخافتة التي لا تفصح عن تفاصيلها والآتية عبر جدران المسجد القريب إيذانا باقتراب الفجر.

.. صرخت بشبق عندما اختفي لون "الحلمة" الوردى المختاط بالبني الفاتح داخل الفم الذي جمع بالحلمة لساناً ملتاثاً أيقظها من خدرها متأودة قبل أن تتصلب في شموخ.

تسببت الصرخة في ركلة قوية طالت مؤخرة الفتى المهتاج تأثراً بمشهد الجسد العاري أمامه جعلته يطلق بدوره صرخة مدوية بدت كأنها إشارة البدء؛ إذ انهالت بعدها ركلات عنيفة مدفوعة بحقد وغل بالغين كانا يوجهان الأقدام الغاضبة إلى جسد الفتاة، وبالتحديد إلى عضوها، وهو ما جعل الفتى يلقي بنفسه عليها محاولاً حماية جسدها ما أمكنه، فيما جعلهما الإحساس الفضائحي الذي سيطر عليهما يكتمان تأوهاتهما إثر الركلات المتتابعة حتى فقدا الإحساس بجسديهما تدريجياً.

لم يعرف الفتى على وجه التحديد كيف انتهت تلك الليلة الدرامية، لكن على الأقل كان يعرف كيف بدأت.

فعندما حدثه "عمرو" عن "باسم" أن "مريم" القبيحة، التي يطلقون عليها اسم "قردة"، داعبت بقدمها ساقيهما بالتتابع أثناء حصة الرياضيات في الدرس الخصوصي قرر أن يجلس بجوارها في الحصة التالية، وعندما فعلت ما سبقت به

إلى الراويين وضع يده على فخذها، فباغتته بحركة مداهمة إلى عضوه واهتصرته بقوة جعلته يطلق، رغماً عنه آهة أثارت انتباه الحضور وارتباكه الذي بـدا معـه وكأنه على شفا نوبة صرع أو إغماءة مفاجئة على أقل تقدير.

مع حلول الظلام كانوا في طريقهم إلي الخرابة، وبالتحديـد تحـت الشـجرة الوحيدة التي سمعوا أنها تأوي الأشباح التي تسكن البيت المهجور، غير أن فـوران دمائهم بفعل استباق الخيال لتعرية الجسد الباهر جعلهم يتغلبون على مخاوفهم لتحل محلها شهوة حارقة دفعت الفتى لأن يعض الحلمة بقسوة أفلتت لسان الفتاة بالصرخة المباغتة.

حدثنى "عمرو" عن "باسم" قال :" في كل ليلة أسمع خلالها الصـراخ القـادم عبر الخرابة أبدأ بالبسملة وأطيل الحوقلة دون جدوى. إلى أن جاءت تلك الليلة التي رأيت فيها...". وإذ رأى الدهشة مرتسمة على وجهي فقـد توقـف ليسـألني عـن توقعاتي إلا أنه لم ينتظر إجابتي فاسترسل قائلاً: "... نعم "مريم القردة".. رأيتها قبل أن تطرق الباب، ودخلت دون استئذان، بل وحتى دون أن يفتح الباب. خلعت ثيابها فجأة، ورقصت أمامي وهى تضحك بهستيريا. وما إن حاولت الاقتراب منها حتـى تحولت إلى بومة ضخمة، وراحت تطلق نعيبها الكئيب وهى ترمقني بغضب".

إلا أنه لم يذكر شيئاً عن مشاركته و"باسم" أقدام الغاضبين التي طالـت فـرج القردة ومؤخرتى!

إليكم شيئاً رومانتيكياً.. فقد كان الفتى ثالث الثلاثة رومانسياً بشكل مفـرط، إذ يشعر بالأسى كلما أردفوا كلمة "قردة" إلى اسمه إلا أنه كان يحاول إخفاء وجع قلبه وهواجسه الرومانتيكية تخوفاً من اتهامه بالسذاجة العاطفية والميلودرامية، ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن تتبع أخبارها دائماً.. ومن بعيد.

*　　*　　*

لم ينقطع النعيق الليلي إلا بعد أن شوهدت سيدة غريبة الأطـوار ترتـدي بعـض الأسمال الرثة المصنوعة من ريش الحمام، يحيط بها عدد من أفراخ الحمام ترفرف حولها، تحط على كتفيها وتطير، بينما تسير هي في تؤدة، ترسم ابتسامة باهتـة لا تخفت من حدة النظرة المخيفة التي تشع من عينيها الجاحظتين.

* * *

عندما بلغوا الثلاثين وفرقت بينهم مشاغل الحياة اختفت الخرابة لتحل محلهـا بناية حديثة بدت شاذة وغريبة بين مساكن الحي القديمة. وسافر "عمـرو" و"باسـم" متتابعين إلى بلاد نفطي غير محاصر، بينما لم تتعد أعمار من تمـنح لهـم "مـريم" جسدها الجميل العشرين، بعد أن ملت فئة الحرفيين والعاطلين ومتعاطي المخدرات الذين انتهكوا جسدها لفترة.

وكالذي انتظر طويلاً ليوفي نذراً انحنى إليها يساعدها على التمدد إلى الفراش قبيل أن يبدأ في تقبيل جسدها برهافة ورقة، وعندما وصلت الشفتان المبتلتان إلـى موضع الركلات تناهت إلى سمع الفتاة ترنيمات غامضة، وهو ما جعلهـا تصـرخ بشبق هستيري لم يعرف الفتى من خلاله ما إذا كانت تبكـي أم أنهـا تعبـر عـن التذاذها.

.. في تشبث حميم لفت ذراعيها حول ظهره، وساقيها حول خصره فيما شرع الجسدان ينتفضان في توتر. وحده يعرف أنه لا قبل له بإطفاء الحريق المشتعل في القلب المعذب. وحدها تعرف أن ما فعله هو الذي قد يطفئ أخيراً ما أشعل حرائـق قلبها طويلاً. شرعت تبكى وهى تردد اسمه في وله وتتشبث بذراعيها وساقيها كأنها تعرف أنه سيتحول بين لحظة وأخرى إلى فرخ حمام صغير سينزلق حتماً من بين ذراعيها.. ولن يبقى في فراغ حياتها سوى.. كل هذا الهديل.

* * *

جين.. تونيك!

.. ورحت أتأمل بروفيلها الأيمن محاطاً بشعرها البني الناعم المنسدل خلف ظهرها وهى تقف أمام النافذة المفتوحة تحدق بالأفق، وقد عبقت الشقة برائحة التبغ القادمة عبر مصنع السجائر المتاخم.

بدت قدماها الصغيرتان اللتان تنتعلان "الشبشب" الأزرق المكتوب عليه كلمة "Sport" بحروف بيضاء – كقدمي طفلة.. بينما اصطخبت الغرفة بصوت "ويتنى هيوستن" الملائكة تغنى أغنيتها "I will always love you" عندما انتهت الأغنية قلت لها:

- القهوة يا جميل.

نظرت إلي وهي تغمغم:

- لأ مش عاوزة قهوة دلوقت.. تعال.

وضعت كوب القهوة على المكتب الخشبي المجاور للباب واتجهت إليها بعد أن أغلقت النافذة. احتضنتها فضمت نفسها إلي باستكانة. خلعت الشبشب ووقفت بقدميها الحافيتين فوق قدمي وبدأنا نرقص على أغنية "هيوستن".

I have nothing ونحن نحرك جسدينا بيسر ثم إنني بدأت أتحرك بها وكأننا جسد واحد.

Share my life
Take me from where I am

أمسكت رأسي بكلتا يديها معتمدة على ذراعي اللتين أحاطتا بظهرها وهى تحدق بعيني فيما تألقت عيناها السوداوان الصغيرتان القلقتان ببريق مثير.

Take my love
I'll never ask for too much
Just further you are
And everything you do

ورحت أضمها إلى صدري برفق وكأنني أحاول الرد على ما تقوله لى عبـر الأغنية:

Cause I have nothing.. nothing.
If I don't have you..

قالت لى بهمس: حاسة إني دايخة.. عايزة أنام.

سألتها: مش حتشربي القهوة؟

- لأ. عايزة أنام.

* * *

في "الكوفي شوب" الواقع بجوار "اللوبي" الذي يتوسط بهو فندق "سميراميس" اخترنا طاولة متاخمة للنافذة الضخمة المطلة على النيل. طلبت من النادل المبتسـم "جين تونيك".. فقالت مبتسمة:

- اطلب لى حاجة زى دي بس تكون خفيفة.

فطلبت لها "screw driver" وفور أن أحضر النادل ما طلبنا التقطت كـأس "الجين" وراحت تشم رائحته بنشوة قبل أن تتجرعه بشبق. فقلت لها مستنكراً:

- إيه؟ فيه إيه يا حاجة؟

وردت مبتسمة: ده ريحته حلوة قوى.. خد أنت اشرب عصير "البرتقان" اللى طلبتهولى.

كنت أحكى لها عن صديقي الذي انتفض راكضاً باتجاه ميـاه البحـر علـى شاطئ "رأس البر" في برد ديسمبر القارص الساعة الرابعة فجراً.. عارياً ليبحـث عنى في أعماق البحر ظاناً – بفعل هلاوس الخمر – أنني قد تعرضت للغرق،

فأغرقت في الضحك بطفولية.. إلا أنها لم تستطع التوقف عن الضحك الهيسـتيري حتى خروجنا من المكان وهى تستند على ذراعي محاولة كتمـان الضـحك بـلا جدوى.

- امسكى نفسك شوية يا ماما.

نظرت إلى مبتسمة وقد التمعت عيناها بالدموع قبل أن تنتابها مـرة أخـرى حالة الضحك الهيستيري:

- مش قادرة.. تعالي نروح عندك.. أحسن لو أبويا شافني كده هيطردني بره البيت.

*　　*　　*

عندما استيقظت طلبت القهوة فأعددتها لها بسرعة، وجلسـت أمامهـا علـى الفراش أحدق بملامح وجهها الدقيقة الأليفة. جذبت السيجارة من بين شفتي وهـي تبتسم. عندما انتهت من القهوة اقتربت مني فاحتضنتها قبل أن نغيـب فـي قبلـة طويلة. التقطت مذاق القهوة على لسانها. راحت هى تزوم كعادتها، إلا أنها وعلـى غير العادة، لم تمارس خدشها الهيستيرى لظهرى بأظافرها حتى بعـد أن خلعـت "السوتيان" وأثناء تقبيلي لثدييها الصغيرين، لكنها غرزت أظافرها في ردفـي بقـوة فور أن امتصصت إحدى حلمتيها الصغيرة الناعمة ذات اللون البني الشاحب ممـا جعلني، رغم محاولتي للتماسك، أطلق آهة قوية. شرعت بعدها في خدش ظهـري بأظافرها وهى تتأود مطلقة آهات شبقة. توقفت للحظـة وأتـاني صـوتها هامسـاً ومبحوحاً ولاهثاً:

- لو عاوز يا بيبي.. أنا ما عنديش مانع.

رحت أستدعى كلامها عن الليلة الأولى والطقوس الأسطورية التـي تعتنقهـا حولها. بالإضافة إلى هيستيريتها التي أعرفها جيداً. لن تقبل فكـرة فقـدان غشـاء البكارة خاصة عندما تفيق من نشوتها هذه.

باغتتني في اللحظة التالية بإمساكي بعنف.. وتماسكت لوهلة قبـل أن أنـزع يديها.. إلا أنني، وبفعل ارتباك اللحظة، التذذت.. استدارت لتستلقي علـى جنبهـا وأولتني ظهرها قبل أن تقرب ركبتيها من بطنها. ثم شرعت في إطلاق تأوهات ألم مفزعة.. وراحت بعدها تبكي كطفلة.

رفضت كل محاولات لتهدئتها أو حتى لمسها دون أن تنطق بحـرف.. فقـط اكتفت بابتسامة شاحبة رسمتها بعناية قبل أن أودعها.

في الصباح اتصلت بها لأطمأن عليها فأتاني صوتها محملاً بنبـرة سـخرية: صباحية مباركة يا حبيبي!

بعد شهر واحد من هذا الاتصال، وبعد محاولات فاشلة متصلة للقائها فوجئت بإحدى صديقاتنا المشتركات تتصل بي لتعلمني بخطوبة حبيبتي.

اتصلت بها فوراً معاتباً وغاضباً كالمجانين لا أستطيع أن أصدق إلا أنها ردت على بهدوء شديد:

- ما أنا كنت بين إيديك يا حبيبى.. تقدر تعمل اللى أنت عاوزه.. وما عملتش حاجة.

وانتابتني غصة كهذه التي تلاحقني الآن.. وأنا أقـود السـيارة، تجـاورني صديقتنا المشتركة التي كانت تدعوني – بتلذذ مريب – لمشاهدة الثياب الداخلية التي اشترتها لتوها هدية لحبيبتي بعد زواجها وهى تقول وبنبرة بدت لي غريبة بعـض الشيء:

- لما عرفت إني حاشترى الحاجات دي.. قالت لي أخدك معايا عشان أنـت عارف مقاسها كويس!

حاولت رسم ابتسامة بلهاء وأنا أشعر أن عضلات وجهي تتقلص رغماً عنى محاولاً استدعاء مشاهد ذلك اليوم الغريب، فيما اتجهت يديّ تلقائياً صـوب جهـاز

الكاسيت لأرفع الصوت إلى أقصاه.. في محاولة لقمـع الأصـوات التـي راحـت تصطخب في أعماقي تدريجياً.

Screw driver

أحب طريقتها في تدليك ظهري وهى تمرر يدها برفق وخفة فوق قميص النوم الخفيف. تفعل ذلك دائماً عندما تشعر أنني مثقلة بما لا أستطيع أن أحكيه لها. ما الذي سأقوله لها على أي حال؟ فهي أبدت عدم ارتياحها لعلاقتي به منذ البداية خاصة وأنني كنت مازلت مخطوبة لرامي. شرحت لها طويلاً أنني صاحبة الاختيار، ووضحت لها إصراره على ألا تبدأ علاقتنا قبل أن تنتهي خطوبتي. ولم أستطع أن أسيطر على تهدج صوتي وأنا أقول لها.. "أرجوك إفهميني يا خالتي. هو ده اللي بادور عليه من زمان.. مش ها أقدر أوصفلك هو بيحبني قد إيه..".

أطلقت تنهيدة عميقة وربتت على كتفي. وكنت أقرأ في عينيها قلقاً لم تستطع إخفاءه. ولكنها كانت مقدرة كوني أخصها بأموري وأسراري بعد أن وصلت علاقتي بأمي إلى مرحلة مؤسفة. وهذا ما يجعلني أفضل المكوث معها بدلاً من الذهاب إلى البيت الكئيب حيث غضب أبى الدائم وتضامن أمي السخيف معه.

عندما شعرت بيديها تتحسسان أعلى الظهر قريباً من الرقبة أغمضت عيني وقد أدركت أنها أوشكت على الانتهاء. بعد لحظات كنت أسمع حفيف خطواتها ثم "تكة" الباب الخافتة التي تزامنت مع إظلام الغرفة التام.

استلقيت على ظهري وأنا أشعر بخدر لذيذ يسرى في جسدي بالتدريج وكانت يدي تقترب من أسفل بطني في هدوء..

كيف أحكى لها عن هذا الشعور الثقيل بالمهانة؟ هل أستطيع أن أزيح من ذاكرتي ليلة الأمس هذه إلى الأبد؟ هل يمكنني أن أنسى مذاق "الجين تونيك" اللاذع

الذي خدر حواسي فجرني بالشبق! ألـم يكـن مـن الأفضـل الاكتفـاء بشـرب الـ"Screw driver".

*　　　*　　　*

كنت تفهمني دائماً.. بل كنت أفهم نفسي من خلالك.. فما الذي حدث؟ صحيح أنني لم أبد تقبلي لملاحظاتك عن عقدي ومشاكلي النفسية – ولن أفعـل – ولكننـي أقتنع بها بيني وبين نفسي. لم أشك في ذكائك للحظة واحدة. ولهـذا أصـر علـى استخدام هذه الطريقة الغامضة – كما تصفها – في التحدث إليك وأنا على يقين أنك ستفهمني وحدك دون أي شخص آخر في هذا العالم.

ستفهمني حتى أكثر من نفسي.. فما الذي حدث لك أمس؟ هل أصابك "الجـين تونيك" بحالة غباء مفاجئة؟

*　　　*　　　*

عندما وضع يده بين ردفي سألته باستنكار؟

- بتعمل إيه؟

رفع يده وابتسم مرتبكاً:

- مش حتبطلى الأسئلة السخيفة بتاعتك دى؟

لم يكن ما يفعله سيئاً.. ولكنه بدا غريباً.. أو بالأدق كان على أن أستنكره. كنا عاريين تماماً. وهو مستلق على ظهره وأنا أنام فوقه ويـداه تتحسسـان ظهـري برفق.. يأتيني صوته بنبرة هادئة مثيرة ممتزجة برائحة الجين والسجائر.

عندما بدأت في امتصاص حلمة ثديه بطعمها الحمضي قليلاً حرك يـده مـن فوق ردفي ليداعب بها شعري.

سألني: بتعملي إيه؟

ابتسمت ولم أرد عليه. لم أكن مقتنعة بتأكيده لى مراراً أن "حلمة" الرجـال لا تسبب لهم أي إثارة. وإلا فلماذا تبرز "الترمسة" تحت لساني في كل مرة؟ أنا أيضـاً أكذب مثل هذه الكذبات الصغيرة.. لم أمل من التأكيد له بأنني لا أمارس العادة

السرية.. وأنني لا أحب الرجال ذوى اللحى الكثيفة.. رغم أنني كنت أحـب مداعبة لحية رامي كثيراً.

أغمضت عيني. أدركت أن القهوة قد أزالت آثار الدوار الذي كنت أشعر بـه قبل النوم. سرت في جسدي رعشة وعيناه تشعان بتلك النظرة الحانيـة. لـم يكـن لرامي يدان خفيفتان كهاتين.

صحيح أنه لم تتح لنا سوى تلك الفرص المتعجلة في سيارته لكنى كنت أشعر أثناءها بنفوري منه بسبب تعجله وإحساسي الغامض بثقل يديه المتلهفتـين. كانـت مداعبة لحيته مثيرة إلى حد ما، وربما كنت أشعر بقدر أكبر مـن الإثـارة عنـدما أداعب شعر صدره الكثيف. ولكنني كنت أتوقف بعناد عندما ألمح نظرة الرجاء في عينيه.. أتوقف فوراً عن الاستجابة لرغباته وأطلب منه أن نتحرك. أكره ضـعف الرجل في كل أشكاله.

لم يكن لبيبى لحية. وعندما شاهدت جسده عارياً للمرة الأولى ذكرني.. بتـوم كروز. ورغم نحافته فلم يكن جسده رخواً.. وصدره عريض. وكانت عيناه تحملان مزيجاً من الحسم والرقة.

عندما سألني في المرة السابقة عن أكثر لحظات استمتاعي أخبرته بأنها لحظة تقبيله لوردتي برقة. كنت أتمنى أن يفهم أنني أريده بكل ما تعنيه الكلمة. أعرف أنه يفهمني جيداً. ويعرف أنني رغم عنادي ومشاكستي الدائمة أخضع لعينين تـأمران في حنان. تماماً كعينيه. كثيرون لم يستطيعوا إدراك ذلك.. حتى رامي.. خدعوا

جميعاً في قناع العناد وكوني متطلبة. وفي الطريق إلى شقته أمس كنت أحـاول أن أخبره عن قراري بأنه هو الذي اخترته ليضع بصمته على روحي.

أمسك رأسى بكلتا يديه ووضع شفته على شفتي. بدأت أشعر بالتقلص وبذلك الإحساس الحارق. وبمسام جلدي تتفتح مع مرور أنفاسه الساخنة الرهيفة على

جسدي. كنت أترقب شيئاً مختلفاً وقد حررت نفسي من كل شيء. أحب مـا يفعلـه خاصة وقد انتقل ذلك الشعور الحارق إلى كل أجزاء جسدي. غرزت أظافري فـي ردفيه وأنا أهتف بصوت مبحوح:

- لو عاوز يا بيبى أنا ما عنديش مانع.

ولكنه لم يفعل شيئاً.. فقط استند بركبتيه حول ذراعي، وإزاء شدة التقلصـات التي داهمتني أمسكته حتى صرخ. وفوجئت به يستلقى بجواري متأوهـاً ومرتبكـاً بينما أحسست بسائل دافئ لزج ينسكب في زخات متوالية على بطنـي وذراعـي.. أثناء حركته المرتبكة. اعتصرني الألم في أسفل بطني وكورت نفسي إلـى الجهـة الأخرى في محاولة لمدافعة التشنجات التي راحت تتابع في إلحاح. وفوجئت بشعور غامض بالنفور منه يتصاعد في أعماقي.

* * *

شعرت بالسائل يبلل أصابعي.. دافئاً ولزجاً. تنهدت بعمـق. لـم تسـتطع أن تتجاوز الطقوس البورجوازية العفنة يا بيبى. أليس هذا تعبيرك؟ ووهم البكارة.. هل هو وهمي أم وهمك؟

كانت رغبتي الدفينة في البكارة تتصاعد. لن أستطيع أن أمنع نفسي عن البكاء على أي حال.. ولكن ليس على صدرك هذه المرة. قلت لى مرة أننى مازوخية..

ليكن، وليكن فراقنا الدليل الأكبر على مازوخيتى. وإذا صـادفت روحـي المثقلـة بالمهانة شبهة الحنين أو الاشتياق لقطعة الشيكولاته مغموسة بطعـم فمـك الـدافئ فسأكتفي بأن أشرب في نخبك – وأنا وحيدة تماماً – كأسا من مشـروبك المفضـل "جين تونيك"... وسأهمس وبالطريقة التي تحبها – دون أن تسمعني هذه المـرة – في صحتك يا بيبى.

1-1999/11/18

تذكارات

نهض متثاقلاً. وضع يده تحت "المخدة" وأخرجها بلفافة "سيلوفان" حمراء صغيرة فتحها بتمهل واستنشق قطعة "الحشيش" ذات اللون البني الداكن. انتقل إلى المطبخ. عاد إلى الغرفة بعد قليل وهو يحمل قدح القهوة بكلتا يديه. انتهى من لف السيجارة بأصابع مدربة ثم ارتشف من القهوة رشفة. وفور أن أشعل السيجارة ونفث دخانها بدأ طقس السعال اليومي.

*   *   *

حدق في عينيها وهو يتقدم باتجاهها كأنه تجتذبه بالسحر الذي يشع منهما. تأمل ملامحها طويلاً كأنه يراها للمرة الأولى. مرر إصبعه على شفتيها قبل أن يهبط إلى ذقنها فرقبتها، ثم خفف من سرعة يديه كثيراً وهو يمرر إبهامه على المجرى الضيق بين نهديها.

وضع إبهامه على شفتيه بخفة فيما عيناه تلتمعان.

*   *   *

لم تستطع الفتاة أن تنهض من فراشها بسهولة بسبب الآلام التي أصابت ظهرها منذ تلك الليلة التي قضتها في أحضان العجوز الذي طردها في الصباح التالي بدون أية أسباب. ولم تكن آلام الظهر هي كل ما أصاب الفتاة، وإنما صاحبها إحساس عجيب بأنها مراقبة.. إلى درجة أنها كانت تستيقظ ليلاً لتسترق السمع إلى ما يبدو وكأنه تنفس منتظم لا تعرف له مصدراً.

*   *   *

انتزع نفسه من تأثير عينيها وهو ينهض باتجاه المرأة المقابلة. تأمل الغضون

التي تحفر ملامح وجهه. مرر يده على شعر رأسه الأبيض الكثيف المشعث. تناهى إلى سمعه صوت موسيقى صاخبة إثر عبور إحدى السيارات في الشارع الهـادئ. انتصبت ذاكرته بمشاهد جمعت بينهما وألحان العود الشـجية ورقصـها الفـاتن.. هتف(.. يا ا !) عاودته الملامح التي كان يحاول أن يقبض عليها في خياله المنهك بعد غياب أصحابها تباعا.

*   *   *

بين آن وآخر كان يقرر الذهاب إلى "البار" العتيق "بوسـط البلـد"، يشـرب زجاجة البيرة وكأسي الكونياك قبل أن يعود إلى وحدته الجاثمة في هدوء إلا مـن الصورة المعلقة على الحائط أمام الفراش، ترسـم صـاحبتها ابتسـامتها الآسـرة، وسجائر "الحشيش" يحلق بها إلى خيال كان واقعاً جميلاً في أيام خلت.

*   *   *

ليلة واحدة فقط هى التي عاد قرب انتصافها إلى وحدته مصطحباً فتاة سمراء نحيفة أفلتت نفسها بصعوبة من بين يـدى "صـايع" ضـخم الجثـة فـي موقـف "الميكروباصات" برمسيس وهى تنادى مذعورة ومشيرة إلى العجوز "أبويا أهـو.. سيبنى أحسن وا العظيم أوديك في داهية".

*   *   *

فور دخولهما الشقة أشار لها صوب الحمام وطلب منها أن تسـتحم. أشـعل سيجارة محشوة أخذ يدخنها بهدوء. عندما وقعت عيناه على الصورة نهض ليغلـق مفتاح النور. خلع قميصه الأبيض وبنطلونه الرمادى وألقى بهما بجوار "السـرير" الذي تمدد عليه بعدها. عندما سمع "تكة" باب الحمام نادى عليها فحضرت متوجسة وهى تلف نفسها "بالبشكير" الكبير الذي كان معلقاً خلف باب الحمام.

عندما تناول يدها وراح يداعب أناملها الرقيقة وساعدها ثم كتفها كانت رائحة

إبطها تتسلل إلى أنفه يختلط بها مزيج الصابون والعرق، فكر للحظة أن يطلب منها استعمال عطر أو مزيل رائحة إلا أنه شعر تدريجياً بألفة مع الرائحة فاستسلم لها مع الصوت المبحوح المتهدج: "قصة حب ولا الأفلام... اتخانقنا.. وعرف على واحدة رحت أتجوزت أخوه قام مطلقنى بعد ست شـهور".. قـرض.. ومشـروع فاشل.. ونقود ذهبت إلى اللبس والذهب و"الفُسح" بدلاً من سداد الـديون. وبـدأت بعدها ملاحقة الشرطة "والمخبرين" قبل رحلة الهروب إلى ليبيا. وفشل ذريع آخـر وجسد منتهك. و..

- أنت عندك كام سنة على كده؟

- 19

- 19؟! صغيرة قوى على الكلام ده..

وكانت آهتها الأسيانة رداً بالغ الفصاحة.

* * *

عندما أخرج العود لأول مرة منذ فترة طويلة شرع يداعب أوتـاره ويدنـدن بصوته المحشرج حتى أخذه الوجد. انسابت الدموع من عينيـه باتجـاه الأخاديـد الضيقة عبر وجنتيه، وعندما شرعت ذاكرته تستدعى الأحباء تباعاً.. كان قد بدأ في النشيج.

"ولم يكن بالإمكان سماع ما هو أكثر مرارة من بكاء عجوز يحمل قلبه كـل هذه اللوعة".

الملاحظة الأخيرة لعابر مر آنذاك بالصدفة ولم يشاهده العجوز إلا في مـرة لاحقة وحيدة.

* * *

ورغم رغبته الشديدة وإعجابه بجسدها بلونه النحاسي الآسر، وتماسك ردفيها، وحرارة جسدها، ورغبتها التي اشتعلت تدريجياً إلا أن شيئاً ما ظل يحول بينهما.

ألقت بنفسها فوقه في محاولة يائسة انتهت بآلام الظهر التي لازمتها بعد ذلك طويلاً ولم تعرف لها سبباً.

احتضنها بحنو فبدا وكأنه يحتضن من خلالها أحبة في الغياب وكانـت هـى تستمع إلى أزيز صدره، وتتذكر أباها وهى تحاول أن تهدئ مـا يصـطخب فـي أعماقها هلعاً من الأيام التي ظلت تصفها طويلاً لنفسها قائلة "أيـام سـود مالهـاش آخر".

* * *

عندما نجحوا في كسر الباب أخيراً ركضت باتجاه غرفـة النـوم.. وكتمـت صرختها عندما رأته راقداً على أرض الحجرة وقد انحسر جلبابـه الأبـيض عـن ساقيه الهزيلتين وهو يحتضن "العود".. وصورة صغيرة تشبثت بها أصـابع اليـد المعروقة الباردة.

التفتت فجأة إلى الخلف كأنها شعرت بقوة خفية لمست كتفيها بإلحاح لتلتقـي بعينين نفاذتين تحدقان بها بنظرات أجفلت لها الفتاة، صرخت فزعـاً إثـر سـقوط الصورة في اللحظة التالية خارجة عن إطارها الخشبي وقـد أصـبحت النظـرات الموجهة إليها أكثر نفاذاً.

* * *

لم يكن العابر الذي روعه بكاء العجوز سوى ملاك الموت.. وهو ما حكته لى تلك السيدة التي كان لصوتها نبرات حادة ومثيرة.

كانت تأتيني ليلاً في فراشي لفترة كنت أعيش خلالها في بلاد يعرف أهلهـا بالسحر. لم أرها.. وإنما كنت أشعر بها وأسمع صوت تنفسها. وأحياناً عندما تتوقف عن الحكى أشعر بأنني أتعرى رغماً عنى ولكني لا أستطيع الحركة. ولم تنصـرف عني إلا بعد أن حكيت الحكاية لصديقة اكتشفت أن لها اهتمامات روحية. سألتني

بجدية عدة أسئلة عن تفاصيل "الجنية" التي ترغب في الزواج منى قبل أن تقدم لى وعداً أكدته بثقة مدهشة "أطمئن.. فلن تحضر إليك مرة أخرى" وتنفست الصـعداء. وإن كنت بين آن وآخر أسترجع آخر ما حكته لى الجنية "المتحرشة": "وكانت الفتاة عندما تتذكر الرجل العجوز تختلط صورته في ذاكرتها برائحة "الحشيش" ونبـرات صوته الأليفة ونظرات نفاذة لعينين ظلت تلاحقها طويلاً.. عبر الشوارع وجـدران البيوت وأحضان الرجال الذين لجأت إليهم هروباً لا يجدي.. فقد ظلـت تلاحقانهـا حتى إلى هذه "المصحة النفسية" ذات الروائح النفاذة والعيون التي تترقبها.. أبداً".

الغرفة الخضراء..

قالت: هذه هى رحلتي الأخيرة. سأعود إلى بلادي. عندما دخلت إلى "نوتردام دى بارى" كنت أفكر بالأحدب و"أزميرالدا". وجدتها راكعة بخشوع أمـام المسـيح المصلوب على اليمين في أول مدخل "نوتردام" فارتعشت روحى.

تذكرتها مساء وأنا أقف على جسر الـ "Point neuf" أتأمـل "نـوتردام" المهيبة ليلاً محاولاً أستراق السمع إلى آهات "الأحدب" أو نداءات "أزميرالدا" فيمـا أتأمل وجه "هناء" طافيا على صفحة نهر "السين". في الصباح التالي شاهدتها فـي غرفة مدير البنسيون حيث كنت أنتظر ابنته الصغيرة اللطيفة لأسألها عـن كيفيـة الذهاب إلى منزل "فيكتور هيجو". لاحظت طلاء الأظافر البني القاتم الذي يزيد من حسيتها المرتبطة بملامحها الأسيوية الرقيقة. عندما التقت عينانا التمعتا بألق شعرت به من السخونة التي أصابت مقلتى وأدهشنى ذلك تماماً.

في "الحي اللاتيني" أوقفتنا السيدة الإيطالية الجميلة وهى تضحك بهيسـتيريا. طلبت منى أن أساعدها. كان كعب حذائها الأنيق قد حشر فـي الغطـاء الحديـدي المضلع الذي تتسرب منه المياه في حالة المطر. أمسكت بساقها محاولاً نزعها بقوة فيما تستند إلى رأسى وقد تمكنت منها حالة ضحك هيستيرية.

قالت لى "لين" الأسيوية الباهرة الجمال.. سأعود إلى بلادي.. سـأعيش فـي المنزل الذي اشتريته هناك وحيدة. هذا أفضل. لم تعد لدى رغبة في أي شيء فـي هذا العالم.

وقلت لها إنني كتبت لصديقة رسالة من عشر صفحات لأخبرها بأنني أحبهـا وقالت لى عبر الهاتف إنها سعيدة بالرسالة ولكنها لا تفكر بالحب الآن لأنها تستعد

للعمل في "مصر للطيران" قريباً. ألا يمكنك الانتظار يوماً آخر قبل الرحيـل إلـى "بانكوك"، أشعر بوحدة قاتلة. لا مكان لى في مصر أو عمان.

ألست أنت "أزميرالدا"؟!

ابتسمت لى وهى تقول بنبرات صوتها الناعمة: يقولون إن إضـراب عمـال "المترو" سينتقل إلى عمال المطار قريباً.

قلت ضاحكاً: يبدو أن القدر سيجمعنا للحياة هنا مجبـرين. البنـت الفرنسـية اللطيفة ذات الشعر الأصفر الحريري لم تكن تعرف مكان منزل "فيكتور هيجـو". قالت إنها ستتصل بالاستعلامات لتعرف المكان وأضافت أن الاتصـال سـيكلفنا 2 فرنك.

قالت "لين" وقد تقلصت ملامح وجهها الفاتنة إنها لا تعرف شيئاً عـن ابنتهـا ذات السنوات الثلاث منذ خطفها أبوها "عشت فترة طويلة في دبي. أحببت لبنانيـاً لفترة.. ولكنه قرر أن يعود إلى لبنان فجأة".

قلت لها إن "ستوديو أورسلين" المتاخم للأوتيل يعرض أفلاماً "لتروفو" لمـدة أسبوع. شاهدنا سوياً "الغرفة الخضراء". عندما وضعت يدي على كفهـا النحيفـة الناعمة تبللت كفي بقطرة ماء دافئة.

قالت: لو أشعل لى أحدهم شموعاً كهذه لـ.. وتهدج صوتها قبل أن تبـاغتني ببكائها الذي أصابني بحالة شجن هيستيرية.

نظرت إلى صورة المسيح مصلوباً على القلادة الذهبية التـي تعلقهـا علـى صدرها وتنهدت بعمق. لم أقل لها إنني لا أجد صليباً أركع له. إلا أننى في الغرفـة الخضراء ليلاً محاطاً بضوء الشموع وآهاتها كنت أسجد للصليب علـى المسـاحة الآسرة بين نهديها الصغيرين.

ذهبنا إلى محل صغير قريباً من ميدان "لوكسمبور"... واشتريت لها ثلاث

شمعات. قلت لها أحب شارع "4 سبتمبر" لأنه أول ما شاهدت في باريس. لم أقـل لها إنني أسقطت دمعتين على سطح نهر السين.. تماماً حيث كـان وجـه "هنـاء" مبتسماً وآسراً ومفجراً لشجوني.

قالت: ابنتي اسمها "ساندرا".. أليس اسما جميلاً؟ أمنت لها بذلك فقالت: هـل سبق أن سمعت صوت ابنتك عندما تستيقظ من النوم؟

أشعل "تروفو" الشموع على امتداد الطريق عبر المقابر والشواهد حتى قبـر زوجته المحاط بالشموع.

عندما سرنا بمحاذاة "السوربون" أشرت إلى الفتـى الـذي يفتـرش الأرض واضعاً رأسه بين ساقيه نائماً وقد مد إحدى يديه أمامه، وقلت لها هذا الفتى أسـميه "تان تان".. وعندما لاحظت هى خصلات شعره التي تعتلى مقدمة رأسه ضـحكت بصخب.

على ضوء الشموع وقبل أن تلتقي شفاهنا أمسكت بالقلادة المتدلية من السلسلة الفضية حول رقبتي، تأملت نصفي الوجهين الذين يكملان الدائرة قبل أن تضـمني إليها في حنان آسر. كان عناقنا مروعاً كأننا نحتضن كل أولئك الذين لن نسـتطيع رؤيتهم إلى الأبد.

قلت لها إنني لم أحب "الجيوكندا" إطلاقاً، ولكني لم أخبرها عن بكـائي أمـام "موت سردانا بال" لديلاكروا. في الملهى الليلي القريب من "الشـانزلزيه" رقصـنا على أنغام "La Boheme" لأزنافور. في طريق العودة الليلية حاولنـا الاسـتدفاء بأكل "أبو فروه" من أحد الباعة الهنود قلت لها: هذه هى المرة الأولى التي أرى فيها أوراق الشجر صفراء ومتساقطة كلها على الأرض في الخريف. علمونا ذلك فـي مصر منذ أكثر من عشرين عاماً دون أن نراه. ضحكت. قالت إننا محظوظان لأن البرد القارس والثلوج تأخرا هذا العام.

أحاطنا الصمت لفترة بعدها سألتني: هل تعتقد أنني سـأرى "سـاندرا" مـرة أخرى؟ وكنت أتأمل الشجرة العارية بجوارنا وقد تساقطت أوراقها من حولها فيمـا الفروع الهزيلة تواجه البرد القارس وحدها.

أشعلت لها بالغرفة الشموع. قالت باكية: لن أنسى لك هذا ما حييت. وكانـت أرض الحجرة الخشبية تصدر أزيزاً حزينا على وقع خطواتي صوب الفراش. كنت قبل إغفائي محتضناً "لين" التي أولتني ظهرها العاري متوسداً شعرها القصير الفاحم الناعم ومستكيناً لعري جسدها النحيف الفاره النعومة قد لاحظت أن الستائر ولـون ورق الحائط والسجاد الموضوع على أرض الحجرة.. كلها خضراء.

ثلاث شمعات

.. لا أعرف ما إذا كنت أحلم أم أنني متيقظة.. لكنني كنت أستمع إلى مونولوج تلك الفتاة كأنها تقف أمامي بجسدها النحيف وعينيها السوداوين بنظراتهما المستخفة واللتين تعكسان المعرفة.. كما شاهدتها عبر الصورة التي أرانى إياها صباح اليوم.

كان صوتها مؤثراً بنبراته المبحوحة. أستطيع أن أفهم إحساسها بالإهانة. ليس سهلاً على أي حال أن تقرر امرأة أن تعطى جسدها لرجل تحبه ويرفضها. أحسست بها إلى الدرجة التي استطعت بها أن أستمع إليها.. في الحلم؟!

أثناء حكايته عما حدث له مع تلك الفتاة كان ينظر إلى السقف في وجوم.. يأتيني صوته بنبرة ثابتة هامسة لم تخل من شجن شفاف جعلتنى أقاوم رغبتي في احتضانه حتى ينتهي من الحكاية.. لأننى كنت أرغب في الاستماع إلى حكايته حتى النهاية.

*   *   *

انجذبت إلى عينيه منذ اللحظة الأولى، تزامنت ابتسامته التي عكست نظرة طفولية من عينيه مع تحيتنا الصباحية بالإنجليزية وليس بالفرنسية كما هو معتاد هنا.. ووجدت نفسي أتخلى عن حرجي وأنا أسير معه في الطريق عبر "الحي اللاتيني" كأننا صديقان قديمان.

توقفنا أمام المقهى المجاور "للأوتيل". طلب من العجوز الفرنسي صاحب الابتسامة الغامضة علبة سجائر. لم يجد سيجارته المفضلة "مارلبورو" فطلب علبة

من ماركة "فيليب موريس".. سألني إن كنت أرغب في شـرب القهـوة فأومـأت موافقة.

لم يكن هناك موضع لقدم أمام الطاولة الخشبية التي يقف خلفها العجوز، وبدا أنه ليست لدينا فرصة شرب القهوة وقوفاً. أشار إلـى طاولـة مجـاورة للواجهـة الزجاجية المطلة على الشارع قائلاً: لا بأس.. سأدفع عنك فرق الثلاثـة فرنكـات بشرط أن تطلبي أنت الماء.

- لماذا؟

ضحك قائلاً: لأنني أخذت درساً قاسياً أمس من السيدة العجـوز التـي تقـدم المشروبات في المقهى المجاور بسبب نطقي الخاطئ لكلمة مياه بالفرنسية.

ولم يتخل عن تحفظه إلا بعد أن انتهى من شرب كوب النبيـذ فـي المطعـم التركى مساء.. حكى لى عن حياته في مصر وعمان.. وكدت أقع مغشياً على مـن شدة الضحك بعد خروجنا وهو يمسك بساق السيدة الإيطالية يحاول إخراجهـا مـن الشبكة المعدنية. قال لى وهو يقبل ساقي ليلاً (لك سمانة ساق جميلـة رغـم أنـك نحيفة.. أجمل من ساق السيدة الإيطالية).

التفت إليه بجواري. كان يغط في نومه العميق. طبعت قبلة على كتفه. كـان رقيقاً وأبديت له تعجبي من توافقنا من المرة الأولى. لم يعلق. اكتفي برسم ابتسامة غامضة وهو يحتضنني. فاجأني الإحساس بأنني أرغب في النوم على صدره إلـى الأبد حيث أشعر بالأمان. ولم أشعر بذلك كثيراً. لدى صورة غائمة عن أبى. ولـم أشعر يوماً بأي إحساس بالأمان مع خاطف ابنتي. تذكرت السلسلة الفضـية التـي يعلقها حول رقبته. سألته عنها. زم شفتيه وهز كتفيه بعدم اكتراث. هذا ما أسـميه الحب. تبدو الفتاة فيها شقراء بسبب الفضة.. لكنني أعرف أنها سمراء. حلمت بذلك عدة مرات.

ألم يكن من الأجدر أن ألتقي به وأن تكون ساندرا ابنته هـو؟! أووف.. يـا يسوع.. متى سينزاح هذا الغم الثقيل عن صدري؟

متى سأراها؟ ليت لى نفس قوة اليقين في أنني سأراها كما يؤمن هـو بأنـه سيقع في حب فتاة سمراء.. نصفه الذي ستكتمل به الدائرة.

عندما اختلست النظر إليه في الاستوديو أثناء دخول "تروفـو" إلـى مقبـرة زوجته بدا وكأنه يعانى من تقلصات مفاجئة ستدفعه للبكاء. عندما شعر بنظراتـي التفت لى وهو يرسم ابتسامة مقتضبة عكسها الضوء المنبعث من الشاشـة أمامنـا. عندما عاد ليتابع الفيلم أمامه داهمتني حالة بكاء مفاجئـة وهسـتيرية لـم أسـتطع مقاومتها.. وبكيت كما لم أبك في حياتي.

قال لى إنه تردد على "دبي" كثيراً. قلت له: إنني سيئة الحظ لأننا لـم نلتـق هناك. ربما لكنا نعيش معاً هناك الآن أو ربما فـي مسـقط أو القـاهرة. وأردف ضاحكاً: أو هنا.. يبدو أن قدرنا سـيجمعنا لنعـيش هنـا مجبـرين.. يقولـون إن الإضراب سينتقل من سائقى المترو إلى عمال المطار قريباً". ضحكت، كنت أعرف أننا غريقان التقيا بالصدفة في حالة جعلت كل منا يحكي للآخـر مـا لا يمكـن أن يحكيه لأي شخص آخر وسيذهب هو غداً إلى القاهرة ومنها إلى مسقط مرة أخرى بينما سأعود أنا إلى "بانكوك" لأعيش وحيدة أملا في أن أرى "ساندرا" مرة أخـرى يوماً ما.

قبلته في عنقه عندما لاحظت أنه فتح عينيه.. وغبنا في قبلة طويلة.. ضمنتها مشاعري وحررت جسدي تماماً وكأنني قررت ممارسة كل رغباتي المكبوتة للمرة الأخيرة.

كان يداعب شعري بيديه بينما أتوسد صدره العريض النـاعم وهـو يرتفـع وينخفض بسرعة.. وعندما بدأ في معاودة إيقاعه الطبيعي في التنفس كنت قد بدأت

أشعر بتسلل ذلك الإحساس الغامض بالأمان وبالخفة. وقبـل أن أغمـض عينـي لاحظت اللهب المتوقد من الشمعة الأخيرة الباقية يتـراقص فـي محاولـة أخيـرة لمقاومة مصيره فوق جسد الشمعة المنصهر في عشوائية.. وتسلل عبق جسده إلـى أنفي وأنا في طريقى إلى نوم عميق لم أعهده منذ وقت طويل..

99/11/12

إيقاع رتيب لسنوات عجاف..

جاءني صوت حبيبتي على الهاتف:

حتروح تقابل "هند" النهارده الساعة 5..

ولم أفهم شيئاً.. إذ إن "هند" هى حبيبتي السابقة. وكانت قد تصادقت مع "نورا" قبل أن تنتهي علاقتنا.. فما الذي يحدث؟ هل تقوم بأحد اختباراتها المجنونة؟ أم أنها تدبر لى مقلباً؟؟!

كنت متشككاً تماماً من الأمر.. وعلى شبه يقين أن "نورا" تحيك لى مـؤامرة لتختبر مدى إخلاصي لها. إلا أنني وفي تمام الخامسة على الرصيف المقابل "لروز اليوسف" وجدت "هند" تقف أمامي.

بدت متجهمة تماماً.. ترتدي بنطلوناً أسود ضيقاً "وسويت شيرت" بنفس اللون. لم تضع مساحيق على وجهها من أي نوع، وعقصت شعرها فـي ذيـل حصـان طويل.

ذهبنا إلى "لاباس" في شارع قصر النيل، وبدأنا حواراً متجهماً كررت خلالـه كلمة "أكرهك" كثيراً. كانت عيناها تشعان بغضب مفضوح لم أشهده فيهما من قبل. حاولت امتصاص غضبها بشتى الطرق والتحايل على رغبتهـا فـي التأكـد مـن ارتباطي بعلاقة جديدة.

ثم إنها قررت أن تختبر قدرتها على إثارة غيرتي فحكت لى عن واقعة حدثت لها مؤخراً. تركت نفسها – انتقاماً منى – لشخص "اكتشفت أنه حيوان.. كتم نفسي بالمخدة.. وقعد يبوس في صدري زى المجنون..".

ولكي أمرر عليها مقصدها فقد استبدلت الشخص المزعوم بنفسي وأنا أنظـر إليها واجما ومندهشاً من استثارتي الشديدة.

فور أن خرجنا من "لاباس" قالت ومازالت ملامحها متجهمة تماماً:

- لسه قدامى وقت.. تعالى نروح عندك!

*　　　*　　　*

عندما انتهت من تأمل الشقة الجديدة وهى تسير ببطء بينما أسير خلفها، قالت بنبرة لم تخل من استخفاف:

- مش حلوة.. شقتك القديمة كانت أحلى.

احتضنتها من الخلف وأنا أهمس لها: ممكن تبقى حلوة بيكى.

أمسكت بيدي ونزعتها من حول خصرها بقوة، والتفتت لى وقد زادت حـدة نظرتها ثم سألتني باستنكار:

- بتعمل إييه؟!

ارتبكت.. ولكني تماسكت وأنا أسألها مبتسماً:

- تشربي حاجة؟

- عندك حاجة غير الشاي؟

- لأ.

- طيب اعمل شاي وخلاص.

وضعت كوب الشاي الخالي على أرض الحجرة وهى تسدد لى نفس النظـرة المتجهة، وكان اضطرابي قد بلغ مداه، مندهشاً من إصرارها على التجهم ومعاملتي باستخفاف – هى اللطيفة أبداً – خائفاً من احتمالات كونها تمارس لعبة اتفقت عليها مع "نورا".. ومقتولا من شدة فضولي لمعرفة ما يدور برأسها.. وكانت رغبتي فيها تتصاعد.

توجهت إلى الكاسيت الموضوع في ركن الحجرة وأدرت الأغنية التي كنـت أسمعها كثيراً بعد انفصالنا بصوت "على الحجار": "لما الشتا يدق البيبان". رسـمت ابتسامة ساخرة قبل أن تسدد نظرها إلى. وكنت اقرأ فيهما:

"ها أنا ذي أمامك بعد إعلانك انتهاء ما بيننا.. فكيف ستأخذني؟!"

حاولت مرة أخرى أن أضمها فأبعدتني عنها بنفس القوة وهى تقول بتأفف:

- بتعمل إيه بس؟ مش مكسوف من نفسك؟

أثارت اضطرابي وغيظي. وانتصبت ذاكرتي فجـأة بلعبـة لعبناهـا سـوياً بالتراضي.. ترى كيف ستكون اللعبة الآن؟!

"استبقنا الفراش. قلت لها أن تتوقف عن الابتسام. وكان ثدياها يتحركان يمنة ويسرة أثناء محاولاتي لتثبيت كفيها بجوار رأسها فيما التفت ساقاها لإحكـام ضـم الفخذين. لا ترتدي سوى سروالها الأرجواني الصغير فيما كنت أنا عارياً تمامـاً.. تغافلنا نهنهاتنا أو تأوهات خافتة تبعاً لجهد المقاومة أو قوة الحركة. يرتطم جسـدانا في احتكاك العانتين فأقرر أن أنزع عنها سروالها وهى تـدفعني عنهـا متحفـزة ومترقبة لا تستطيع أن تمنع الابتسامة المرسومة على شفتيها لتعبر بها عـن فـرط إثارتها من اللعبة".

أما الآن فلم تحاول أن تدفعني عنها.. ولم تقاومني أثناء رفعي للسويت شيرت حتى أعلي نهديها.. بل وسهلت لى مهمة إنزالي لبنطالها قبل أن تباغتني بإنزالهـا سروالها البيكينى الأسود حتى ساقيها وهى تسألني بعصبية:

- أهو.. مش هو ده اللي أنت عاوزه.. بس لما أنت ما بتحبنيش.. بتعمل كده ليه؟

كانت كلماتها كنصل حاد شق روحي مولداً تلك البرودة المؤلمـة والمباغتـة التي تسبق الآلام الحادة، لم أعرف ما ينبغي على فعله. ألقيت بنفسي على عريها

المباغت ولم تقاومني، فقط.. أدارت وجهها بعيداً وتوقفت عن الحركة لتتركني أواجه التياثي ونزوتي غير المبررة ووخزات الروح الموجعة. قامت لترتدي ثيابها في هدوء وهى تقول بحزم:

- عاوزه أروح.

وأدركت أنها كانت ترد على قراري بالتخلي عنها بشكل عملي، وبصفعة تركت أثراً بارزاً على روحي حتى بعد لقائنا الأخير الذي أعقب واقعتنا هذه بفترة في أوج زينتها ورومانسيتها ورقتها الآسرة جالسين أمام الكورنيش فيما أتأمل الأنوار التي تتلألأ من فندق "شيراتون الجزيرة" الأسطواني الغارق في النيل أمامنا على امتداد النظر. لا أمل لنا في لقاء آخر. اكتفينا بتبادل الهدايا للمرة الأخيرة (جاهدنا لإخفاء رغبتنا المشتركة في لقاء حميم آخر). أعطتني ميدالية تنتهي بقالب صغير من حجر أزرق، وأصرت هي أن تأخذ "الأنسيال" الفضي الذي يلتف حول معصمي الأيسر والمحفورة عليه حروف اسمي السبعة. أما حروف اسمها فسأدرك بعد وقت طويل أنها حفرتها على روحي بقوة عبر الأيام التي كنت أستيقظ في صباحاتها مباغتاً بأنسيال الدموع التي كنت أقاومها مستيقظاً فتباغتني نائماً حتى استيقظ ولسنوات عجاف بعدد حروف اسمي.

مشاهد من أعلى الجدار..

الجميلة.. لم يكن بإمكان أحد أن يصفها بغير ذلك، فقد كان جمالها صـارخاً، ومستفزاً في بعض الأحيان.. عينان خضراوان وشعر ذهبي طويل. أنـف دقيـق وشفتان صغيرتان تبرزان قليلا في تحد مثير.

وعنها قال لى "عماد":

- هى السبب في كل اللى أنا فيه دلوقت.. هى اللى ضيعتنى.

ثم إنه وجه لى نظراته الزائغة طويلاً، وبدا متردداً قبل أن يعاود حديثه قائلاً:

- أصل وأنا صغير شفت.. ربنا.

- ربنا؟!

((كان ذلك في الطفولة البعيدة ليلاً.. أثناء نومي. اسـتيقظت علـى صـوت ترنيمات خافتة وعندما فتحت عيني شاهدت هالة نورانية جليلة وبجوارهـا خيـال لشخص فهمت لاحقاً أنه الرسول نفسه)).

نظر إلى يتأمل دهشتي وهو يهسهس فهسهست بدورى، فراح يتـابع".. لـم أتحرك من مكانى، ولكنى سمعت ا يوصى النبى بى خيراً ففرحت.. وأدركت أن هذه الرؤيا هى البشرى بنبوتى، أو الإشارة إلى أننى سأكون معصوماً مـن الخطـأ على أسوأ التقديرات.. واستمر هذا الإحساس طويلاً حتى جاءت هى.. لتخرجنـي من الجنة.. وتدمر كل شيء".

* * *

في مرحلة الصبا ارتبط اسمه باسمها بين جميع الأصدقاء. أما الذي لم يعرفه

أحد فهو ارتباط جسديهما أيضاً بعد لعبة انتهت بهما عاريين وقـد تبلـل موضـع خصوبتها بسائل أبيض لزج دافئ له رائحة غريبـة قلـيلاً.. متعانقـان.. لاهثـان ومندهشان تماماً مما حدث. وبعد لحظات – ولسبب غامض – أطلقت الفتاة ما يشبه صرخة مكتومة وهى تدفن رأسها في عنقه.

ورغم أن علاقتي بعماد بدأت في فترة متأخرة، إلا أننى كنت مهتمـاً بهـذه القصة وهو ما جعلني أعكف على جمع تفاصيلها من أطراف كثيرة. وبعد اسـتبعاد كل ما بدا متناقضاً يمكننى أن أحكيها بالشكل التالى:

عندما أفاق الفتى من نشوته اكتشف أن "جميلة" خرجت به من الجنة التي بشر بها في رؤياه، واعتبر ما فعله معها إثما ينبغي أن يهجرها لأجله عقابا مقدرا.أمـا هي فلم تستطع أن تفهم سر تجاهله لها بين جميع الأصدقاء، وإصراره على ذلـك حتى أثناء الألعاب الجماعية "الاستغماية" و"السبع بلاطات" و"المنـديل" بـل وفـي أحاديث السمر العادية.

كما أن كل محاولاتها للفت انتباهه وتذكيره بألعابهما العارية قد باءت بالفشل رغم ارتدائها "الجيبات" القصيرة عن المعتاد، أو محاولاتها المرتبكة للاحتكاك بـه في لعبة "المنديل".. وهو ما أدى في آخر الأمر إلى انتصار إحساسها بالمهانة على ألمها ليجعلها تبادله التجاهل قبل أن تبدأ خطتها في الإيقاع بكل الفتيـان الآخـرين أسرى لجمالها مولهين وهائمين.. ورهن إشارة من إصبعها أو ابتسامة من شفتيها. وهو ما حققت فيه نجاحاً كبيراً دليله تفزعهم ليلاً وهم نائمون يرددون اسـمها فـي وله.

ولم تبخل الطبيعة – متواطئة – في إنضاج الفاكهة مبكراً.. وهـو مـا لـن يستطيع الفتى تجاهله رغم محاولاته للتظاهر باللامبالاة على اعتبار أنه أول من فك شفرات الجسد الذي أصبح لفرط جماله معجزاً.

*   *   *

لكنه لم يستطع أن يخفي ارتباكه وهو يصفاحها مباغتاً بوجودهـا فـي بيـت صديقه الذي اعتاد أن يقضى معه وعائلته الصيف بالإسكندرية، فقد كانت أخت ذلك الصديق – واسمه رامى - وبالصدفة المحضة، هى أيضاً صديقة لجميلة.

ولسبب في نفسيهما لم يخرج الصديقان كعادتهما في عصر كل يوم للتمشـية على الكورنيش قريباً من "محطة الرمل"، خاصة وقد خرج الجميع وأصبح البيـت خالياً.. وهو ما يخلق فرصة مثالية لمداهمة الدولاب الذي يتوسط حجرة الأب والأم وإخراج مجموعة مجلات الـ "Play Boy" لمشاهدة صور الفتيـات العاريـات، وكان "عماد" قد تخلى عن فكرة النبوة فيما يبدو.

إلا أن مخططهما قد باء بالفشل بسبب عودة الفتاتين مبكراً من الشاطئ، وهو ما جعل "عماد" يخرج إلى الشرفة مغتاظاً قبل أن يلحق به صديقه ويهمس له بـأن يتبعه وهو يرسم على وجهه ابتسامة خبيثة.

كانت "جميلة" تقف عارية تماماً تحت "الدش" وقد أغمضت عينيهـا تحـاول إزالة "الشامبو" عن شعرها. ورغم غرابة المشهد – لأن الفتى كان يراه من أعلـى جدار الحمام الذي لم يكن ليصل إلى السقف، واقفاً على أطـراف أصـابع قدميـه المستندة إلى كرسي صغير يعلو طاولة متاخمة لباب الحمام بينما يراقـب "رامـى" الطريق في الردهة خوفاً من أن يضبطا بالتلصص – فقد كان لمشهد الجسد علـى نفسه وقع السحر، وانتابه شعور كالنشوة مختلطة بوجل غير مبرر ظل يصاحبه بعد ذلك كلما شاهد امرأة في لحظة عريها الأولى.

لم يكن هناك وجه لمقارنة الجسد الغلامي الذي عرفه في صباه بهذا الجسـد المكتمل القوى على امتداد بصره يرتكز على ساقين يستطيع أن يستشعر لـدونتهما بعينيه، وهو ما سيتأكد منه ليلاً على الشاطئ عندما تأتى "حنان" لتخبره أن "جميلة" تعاني من آلام شديدة بقدميها. وعندما يهرعان إليها يجدانها جالسـة علـى رمـال الشاطئ تتأوه وقد تقلصت ملامح وجهها بالألم وهى تمد ساقيها أمامها، وستترك له

الساق المصابة ليتحسسها في رفق، وفور أن تنتقل يداه من الكاحل إلـى "سـمانة" الساق البضة يفاجئه صوتها وبنبرة لا تخلو من حدة:

- إيه ده؟ بتعمل إيه يا بابا؟ أنا خلاص رجل خفت.

وبعد أن يرفع يديه عن ساقها مرتبكاً ستوجه إليه نظرة تشفٍ عميقـة تتبعهـا بضحكة صاخبة.

وهكذا يقرر أن يتجاهلها إلى الأبد، وإن لم يستطع أن يتجاهل إحساسه بملمس ساقيها أو مشهدها عارية في الحمام لفترة طويلة. أما هى فقد عادت لحلمها القـديم عبر علاقات متعددة انتهى أغلبها بمشروعات "خطوبة" فاشلة لأسباب لـم يعرفهـا أحد.

* * *

شخص واحد فقط وقع في غرام الفتاة دون أن تعرف عن أمره شيئاً لا هـى ولا "عماد" ولا أي أحد. كان يسير خلفها دائماً دون أن تشعر به. وهو نفسه الـذي سيحملها بين يديه، مغشياً عليها تنزف الدماء من رأسـها وأنفهـا وجـلا وخائفـا ومرتجفا، فور سقوطها على أرض الطريق بعد أن صدمتها سـيارة مسـرعة فـر سائقها هارباً.

عندما أفاقت الفتاة انتابها جزع لم يكن بإمكانها السيطرة عليه، ليس فقط بسبب الضمادات التي لفت رأسها وذراعها وقدمها، وإنما بسبب رؤيتها لشخص غريـب الملامح يجلس أمامها في هدوء: شفتان غليظتان وعينان جاحظتـان يعلـوان أنفـا أفطس وشعر طويل مجعد على جبهة عريضة.

إلا أن مشاعرها شفت تماماً عندما لاحظت أنه يبكى لآلامها دون أن يشـعر بأنها قد أفاقت من غفوتها أخيراً. وعندها انتابتها مشاعر غريبـة – ربمـا للمـرة الأولى في حياتها – تجاه هذا الدميم البائس، والذي يبكى – وحده من دون العالم – بحرقة طفولية لأجلها.

*   *   *

في الأيام التالية كانت المدينة الصغيرة تتناقل خبر زواج "جميلة" من الغريب في ذهول. وعندما تأكد الجميع من صحة الخبر راحوا يشيعون – وعماد أولهـم – أن "جميلة" تحولت إلى مسخ شائه يدير الناس وجوههم تحاشياً لرؤية دمامتها فـي طريقها من أو إلى بيت الرجل غريب الأطوار.

أما بالنسبة لى فلم يكن الأمر مدهشاً على الإطلاق، لأن ذلك الغريب المشـوه لم يكن سواي أنا نفسي – ولا حيلة لى في ذلك – أما هى فإن جمالها راح يشـتعل كل يوم ويتوهج رغم أكاذيب هؤلاء المساكين وأولهم "عماد" الذي لا يعرف أننـي شاركته رؤية جسد "جميلة" في تلك الليلة البعيدة.

فعندما دفنت جميلة وجهها في رقبة "عماد" وهى تصرخ كانت تتحاشى النظر إلى "برص" وقف أعلى الجدار يراقبها في إلحاح. ولأن روحي – في حياتي الأولى – كانت قد حلت في جسد ذلك البرص فقد استغرق الأمر طويلاً حتى استطعت أن أصل إليها أخيراً في هذا الجسد الذي قد يبدو في عيون الجميع بشعاً.. غير أنني لا أهتم كثيراً لأنني في عيني "جميلة".. أبدو أجمل.

أشباح الحواس

كنت منغمساً في تذوق حلمة ثديها الأيمن فيما كانت تضع إحدى يديها حـول رقبتي وتداعب بأناملها الأخرى شعري.

قالت هامسة:

- تحب أقول لك على حاجة ما تعرفهاش؟!

التفت إليها. كانت عيناها المسدلتان قليلاً تشعان ببريـق أخـاذ يزيـد مـن سحرهما، بينما وجهها الشاحب بفعل النشوة مغمور ببهجة طفولية.

- إيه؟!

- الستات بيحسوا بالشمال أكتر.

- معقولة؟! إشمعنى؟

ضحكت وهى تقول بنبرات صوتها المبحوح:

- مش عارفة.. يمكن عشان فوق القلب على طول.

وكنت أغمغم متوجهاً إلى ثديها الأيسر: أول مرة أعرف الحكاية دى.

ورحت أتابع ما أفعله بشفتى على أنحاء متفرقة من جسدها النحيف ذى اللون النحاسى الأخاذ وأنا أستدعى صوراً متفرقة لنهود طالتها شفتاى محاولاً اختبار مدى صدق ملاحظتها.

عندما انتهيت احتضنتنى وهى تهمس:

- أنت رقيق قوى..

أطلقت ضحكة بدت لى ماجنة نظرت إل مرتبكة وملامـح وجههـا ترسـم دهشتها:

- بتضحك على إيه؟

- أصل الكلمة دى اتقالات لى كتير قوى.. ومن بنات كنت باحبهم جداً.. بس برضه سبنا بعض في الآخر.

تنهدت وكأنها تذكرت ما أثار لديها شجوناً مماثلة وهى تميل إلى وتقبل رقبتي قائلة:

- الحاجات دى قسمة ونصيب.

قبل أن نغفو قالت: أنا حظي وحش... النهاردة جت لى الدورة.. بس لو أنت عاوز عادى.. مش عندك "تبس"؟

كان وقع الكلمة على أذنى غريباً لاعتيادى الكلمة الإنجليزية "كوندوم".

قلت لها: لأ.. لأ.. ما فيش مشكلة.. خلينا لبكرة أحسن.

* * *

في الليلة التالية تعانقنا طويلاً.. إلا أننى كنت أشعر بحالة من الفتـور غيـر المبرر والتراخي المريب. استرخينا متجاورين وأشعلت سيجارة وناولتها إياها.. ثم شرعت في إشعال سيجارة أخرى.

قالت وهى تنفث الدخان:

- فكرتنى بجوزى.. أول ليلة. كانوا رابطينه. قال لى شوف لنا واحد يـ ـ ـ.. إحنا الاتنين.

ضحكت قبل أن أسألها وأنا أعرف إجابة السؤال:

- إنتى مختونة؟

- يعنى إيه مختونة؟!

- يعنى متطاهرة؟

فقالت بنبرة استنكار:

- أيوه.. طبعاً.

-... وليه طبعاً؟!

- لأنى لو ماكنتش.. وحصل اللى حصل دلوقت. كنت قطعتك.

- مش أوى كده.

- لأ.. أوى كده يا بابا.

- لو كنت مش متظاهرة.. كنت عملت حاجة بدل ما أنت مستنيانى أعمل أنا كل حاجة.

- ها اعمل إيه يعنى؟ ما أنا قدامك أهه.. هو أنا مش ست ولا إيه؟ وبعدين ما أنت كنت امبارح ماشاء ا .

- طيب.. طيب.. خلاص.

داعبت كتفي بأناملها وهى تقول:

- طيب.. ما تزعلاش. نام دلوقت وارتاح. وما تبقاش متوتر.. عشان أنا بكرة مش هاسيبك.

*　　　　*　　　　*

استيقظت فجأة. التفت إليها فوجدتها تنهض مفزوعة وهى تحدق بـي وعلـى وجهها ارتسمت ملامح فزع حقيقي. سألتها:

- إنت كنت بتضحكى دلوقت؟

- باضحك إيه بس؟ هو فيه حد بيضحك وهو نايم؟ أنا افتكرتك إنت؟

قلت لها:

- يبقى تلاقيه حد كان ماشى في الشارع.

- شارع إيه بس؟ أكيد فيه حد في الشقة. بسم ا الرحمن الرحيم..

نهضت وجلا وسرت بحذر حتى باب الغرفة، وأخرجت رأسى وأنـا أنقـل بصري يميناً ويساراً ولكني لم أر شيئاً رغم الإضاءة الصادرة عن الحمام المجاور لغرفة النوم. تنقلت على أطراف أصابعي عبر أنحاء الشقة ولم أجد شـيئاً فتنفسـت بارتياح. ذهبت إلى الصالة حيـث جهـاز الكاسـيت وأدرت اسـطوانة "الجـاز" الموضوعة فيه لـ "Kenny G" وعدت إليها ضاحكاً:

- باينا كنا بنحلم حلم واحد.. مافيش حاجة.

كانت عيناها تعكسان قلقها، وقد أسندت رأسها إلى ظهـر السـرير رافعـة "البطانية" حتى رقبتها متشبثة بها بكلتا يديها.. قالت:

- أنا كنت عارفة إن مافيش فايدة.

* فيه إيه بس؟ إنت هتقلبيها دراما ليه؟

بعد فترة طويلة استطعت أن أفهم منها أنها على يقين بأنها "راكبها عفريـت" يلاحقها ويريد أن يضاجعها بشتى الطرق، وأنه السبب في فشـل زواجهـا، وفـي تورطها في علاقاتها اللاحقة التي أودت بها إلى الطريق هاربة من الشرطة وذئاب الشوارع. وهو ما جعل ذاكرتي تبرق فجأة بذكرى لقائي الأول بها. وبدت الدهشـة على ملامح وجهها وهى تقول: أنا برضه من أول ما شفتك حاسة إني عارفـاك.. بس مش فاكرة شفتك إمتى وفين؟

حدثتها قلت: ".. قال لى الرجل العجوز ذو اللحية البيضاء الطويلة والشـارب الكثيف المصفر قليلاً في البقعة التي تتوسط الشفة العليا بفعل التدخين: "تسمح تولع لى يا ابنى؟". وعندما فعلت مرت بجوارنا فتاتان ترتديان عباءتين سوداوين تنتعـل إحداهما "شبشباً" أسود عاليا يكشف عن قدمين بضتين معتنى بهما كما يؤكد الكعبان الناعمان، بينما طليت أناملها بلون أحمر وردى. عندما نظرت إلى عينيها أخـذت.. كانت هاتان العينان هما عيناك الواسعتان الأخاذتان ببريقهما المدهش وقـد كحلتـا بعناية، بينما أسدلت بعضاً من خصلات شعرك الأسود الناعم الحالك، عبر الوشاح الأسود الذي وضعتيه فوق رأسك فيما تسلل عطرك الصـباحي المثيـر ليدغـدغ حواسي. بعد لحظات كنت أسير خلفكما بدءاً من مبنى "إدارة الأزهر" العتيق الـذي يتوسط "شارع الأزهر" ثم موليا ظهري "لمسجد الحسين" القريب نزولاً عبـر نفـق المشاة المؤدى إلى الجهة الأخرى.

فوجئت بكما تدخلان مبنى قديماً له نفس طابع المبانى الضخمة. أدركت لاحقاً أنه مقر "لجنة الفتوى". اندهشت لدخول العجوز خلفكما وهو ما حسم ترددي في

الدخول متأملاً الجدران العالية المطلية بلون أزرق شاحب على امتداد الردهة وحتى القاعة الفسيحة التي انتشر فيها "الشيوخ" كل إلى طاولة خشبية طويلـة يجاورهـا مجموعة من المقاعد الخشبية "والدكك" ذات اللون الأخضر والتـي يجلـس إليهـا الجمهور انتظاراً لدوره في سماع فتوى الشيخ الذي يختاره ليحكى له ما يريـد أن يستفتيه فيه.

اخترت أنت وصديقتك ذات الشعر الأصفر – المصبوغ بالأكسجين – الشـيخ الأكثر نجومية بفضل برنامجه الأسبوعي.

طلب الشيخ النجم من الرجل العجوز – مستنكراً – أن يطفئ السيجارة. ابتسم العجوز وهو يهمهم معتذراً قبل أن يضغط السيجارة بين إبهام يده اليسرى والسبابة الغليظة، بينما "يعدل" بالأخرى من وضع "الكوفية" ذات اللون البني الشاحب علـى رأسه الخالي من الشعر، قبل أن يخرج من جيب معطفه، البني الذي يغطى جلبابـاً من "الكستور" له لون أخضر باهت، علبة ثقاب خالية وضع بها عقب السيجارة وهو يسعل بقوة.

لم أستطع أن أسمع ما تقوله صديقتك للشيخ النجم، وقد اقتربت منه كثيراً بينما راحت تشير إليك بين آن وآخر، لكنني التقطت، بصعوبة، من بين كلماتك التي كنت توضحين بها للشيخ رداً على استفساراته وأنت ترسمين ابتسامتك الجميلة التي كنت تحاولين بها إخفاء ارتباكك، ما بدا وكأنه "عفريت" و"طـول الليـل" و"مابنـامش"، وبعدها سمعت الشيخ، والذي لاحظت أنه مهتم بإحكام "العمة" و"القفطان" على عكس الشيوخ الآخرين الذين وضع أغلبهم ما يتعممون به أمامهم وأطلقوا العنان لأيـديهم تعبث في الرؤوس الحليقة، يحدثك مستنكراً ومتجهماً حديثاً طـويلاً التقطـت منـه كلمتي "السحر" و"الجن" عدة مرات..".

أتاني صوتها رخيماً.. يخرب بيتك.. هو أنت؟!

راحت تحدق بي وكأنها تتحداني.. وفوجئت بصوتها الذي أتاني حاداً ورهيفاً في الوقت ذاته.

قالت: ".. حدثني الرجل العجوز بعد خروجنا من المبنى العتيق قال إنـه قـد سمع ما دار بيني وبين الشيخ مؤكداً أنه يمتلك الحل لمشكلتى، ورغم تأثرى بما قاله وبنظرات عينيه التي كانت تنفذ إلى أعماقي إلا أنني شكرته وانصرفت.

ولكني لم أستطع التخاص من الأرق الليلي المزمن ولا من الأصوات الغريبة التي تنادى على أو تحكى لى حكايات غريبة رغم أنني نفذت نصائح الشيخ كلهـا. ذهبت إلى ضريح "سيدنا الحسين" أشكو إليه حالي وأبكى. وأثناء خروجي من بـاب المسجد شاهدت الرجل العجوز فاتجهت إليه في بيته في حارة ضيقة خاف "جـامع الحسين" حكيت له تفاصيل ما أشعر به. طمأننى موضحاً أن لديه تعويذة لها القدرة على طرد أي عفريت أو جنى أياً كانت قوته.. ولكنه اشترط على أن أخلع ثيـابي لكي يمرر يده على جسدي أثناء ترنيمة بالتعويذة.. ولكننـي رفضـت وأسـرعت بالخروج.

لم أستطع الصبر لأكثر من أسبوع واحد بسبب تدهور حالتي. قال لـى.. لا تخافي فلست إلا عجوزاً لا قدرة له على شيء.. وحتى يدي فقـدتا القـدرة علـى الإحساس، وأطفأ السيجارة التي كان يمسك بها في يده وهو يبتسم لى. بعـد قليـل كنت أنام على فراشه عارية تماماً. أجفلت عندما شعرت بيديه الغليظتين البـاردتين تتلمسان كتفي في رفق قبل أن تنتقلا على امتداد جسدي تدريجياً فيما تلـتقط أذنـي "هسهسات" غامضة لم أفهم منها شيئاً راح يرددها بلا انقطـاع. والغريـب أننـي شعرت بالراحة فعلاً.. وهو ما شجعني على تكرار الأمر لعـدة مـرات. لكننـي لاحظت بعد ذلك أنني كنت أستغرق في النوم بعد لحظات من بدء طقوسه في تدليك جسدي. وفي إحدى المرات أفقت من النوم لأجده أمامي عارياً تماماً واضعاً شـفتيه على "وركي". وكان جسده أمامي جسد شاب قوى مثير.. فزعت وخرجت من عنده

وقد أقسمت ألا أعود – ولكنني لم أعرف طعما للنوم بعد ذلك، وحتى الآن، وها هو يلاحقني بضحكاته هذه كلما عرف النوم طريقاً إلى جفوني أو كلما احتجـت إلـى النوم في أحضان رجل".

كنت أستمع إليها غير منتبه إلى يدي التي راحت تداعب جبينهـا ثـم كتفهـا وظهرها وردفيها ثم ساقها المثنية فوق ساقي. وكانت هى تدس نفسها في أحضاني كلها أوغلت في الحكي..

وتركتها تحكى لأقوم بتدليك جسدها برقة وأنا أقبل ردفيهـا وبطـن ركبتهـا وعرقوب القدم.. وهو ما جعلها تتوقف عن الحكي عند ".. أحضان رجل" لتبدأ في إطلاق تأوهات لم تخل من غنج مثير حتى بعد انسحابي اللاإرادي عنها ووقوفي في ركن الحجرة كالمشلول – أشعر وكأن يدا غليظة وباردة تقبض على قلبـي.. فـلا أستطيع التنفس أو إخراج صوتي بينما استمرت هى في تأوهاتها الشبقية وتأودهـا الذي أخذ بعد لحظات إيقاعاً سريعاً. تماماً كأنفاسي اللاهثة وصوت الضحكات ذات الرنة المعدنية التي ارتفعت فجأة.. قبل أن تتلاشى مخلفة.. صـمتاً لا يقطعـه إلا صوت تنفسها المنتظم..

قمر النشوان!

كان المارة في شارع "رمسيس" يشاهدون جمهرة أعلى "كوبرى 6 أكتـوبر" وهم يتحلقون حول مشهد مجهول التفاصيل، إلا أنه، فيما يبدو، كان مثيراً لدرجـة توقف أغلب السيارات تباعاً ليترجل منها أصحابها للانضمام إلى الحشد الكبير الذي أثار انتباه الرجل الأنيق ذي الشارب والشعر الأبيض الجالس في الحجرة المكيفـة الفاخرة أمام مكتبه يتفحص بعض الأوراق أمامه، وقد ارتسمت على وجهه ملامـح جدية تحولت تدريجياً إلى الدهشة وهو يراقب تزايد حشد الجماهير التي كانت تسلط أنظارها باتجاه مكتبه وبعضهم يشير باتجاهه، فيما راح آخرون يضحكون بهستريا وهم يضربون كفاً بكف.

طلب الرجل من سكرتيره بعصبية أن يذهب إلى خلفيـة المبنـى الأكـاديمي ليعرف تفاصيل ما يحدث.

* * *

اعتاد المارة رؤيته يتراقص شبه عار بجسده النحيف رافعاً يديه إلى السماء.

أما الذين اعتادوا المرور يومياً من هذا الطريق فهم يعرفون أنه لا يمـارس طقوسه الغريبة هذه سوى يوم واحد في الشهر، غير أن أى منهم لم يعرف أن هـذا اليوم يوافق دائماً اكتمال وجود القمر ساطعاً في وسط السماء.

.. يرقص بلا توقف.. ليبدو جسده وكأنه يتحرك على أنغام عزف مجهولـة المصدر. وبالتدريج سيترك الطريق الرئيسي صاعداً إلى المدق الضـيق المتـاخم للكنيسة، وخلفها تصل طاقته إلى مداها.. يخلع ما تبقى من ثيابه وهو يرفع يده إلى السماء فيما ينعكس ضوء القمر على جسده النحيف.. لا يتوقف إلا ليجلس متـأملاً

القمر في هيام. وعندما يبدأ القمر في الاختفاء يشحب هو بدوره حتى يبدو وكأنه قيد الموت قبل أن تصيبه حالة من التقاص المستمر التي يبدو صوته معها مبحوحاً كأنه يردد اسما ما لا يمكن تمييزه أبداً.

*   *   *

لدقائق معدودة ظل الرجل واقفاً بلا حركة يحدق بالمشـهد العجيـب أمامـه مأخوذاً. كانت غرفة المدير تطل على شرفة كبيرة تحتها مسـاحة خاليـة ضـمت كرسيين. كان الشاب مائلاً على الفتاة يقبلها بينما يده تعبث – عبر قميصها المفتوح – بثدييها بينما تستقر الأخرى تحت "الجيب" القصير الذي ترتديه وهما غارقان في حالة شبقية غير مباليين بصفير الجمهور الذي يتابع الموقف المثيـر وقـد بلغـت حماستهم أوجها. لكنهما انتفضا عندما داهمهما الصوت الأجش المرتبك:

- بتعملوا إيه؟ يخرب بيت أبوكم!

مرت الأيام الثلاثة التي شهدتها التحقيقات الموسعة على الفتى وفتاتـه ثقيلـة مشحونة بالتوتر والقلق ومخاوف الفتاة الهستيرية، إلا أنها انتهت في آخـر الأمـر بإنذارهما بالفصل رأفة "بأهاليكم اللى ما عرفوش يربوكم".. بعد أن استخدمت الفتاة نبرة خاصة توسلت بها إلى العميد ألا يدمر مستقبلها بالفضيحة مع تقـديم وعـود مرفقة بأغلاظ الإيمان ألا تعود إلى ما فعلته.

*   *   *

في الطريق من الزنزانة إلى غرفة الزيارة كان عقلها يعمل بسرعة.. وهـى تفكر فيمن يمكن أن يحضر لزيارتها خاصة وقد تبرأ أهلها منها. فوجئت به يقـف خجولاً كعادته وهو يرسم ابتسامة ودودة فأجهشت في البكاء قبل أن تلقى بنفسها إلى أحضانه، وراح الجسدان يرتجفان على إيقاع لنشيج لم تسـتطع الحارسـة البدينـة الواقفة على باب الغرفة تمييز مصدره.

*   *   *

.. إلا أن هذه الأيام الثقيلة جعلت كلاً من الفتى وفتاته يشعران باقتراب عوالمهما وانتمائهما لبعضهما أكثر من أي وقت مضى، وهو ما جعلها تقبل اقتراحه بإعطائها دروساً في الاقتصاد بلهفة.. لكنهما استبدلاها بدروس في ممارسة الحب، تمنعت الفتاة طويلاً في تقبلها قبل أن ترضخ أخيراً لأصابع اليد التي راحت تجذب قطعة الثياب الأخيرة في إلحاح أملاً في الزواج الذي وعدها به كحل وحيد للفضيحة التي كانت الألسنة في المبنى الأكاديمي قد بدأت في تداولها.

وتكررت لقاءاتهما في شقته.. تخلع ثيابها قبل أن تتوجه عارية إلا من سروالها الداخلي والسوتيان إلى المطبخ لتعد القهوة التي كانت تتعرض "للفوران" دائماً بسبب تسلل الفتى خلفها وإصراره على مضاجعتها في المطبخ أمام الموقد.

* * *

رغم خجله الشديد فقد استجمع قواه ليخبرها ذات مرة بمشاعره تجاهها والتي تلقتها بمودة ظاهرة.. إلا أن الصليب المدقوق على ساعده الأيمن وقف حائلاً دون تطور العلاقة عن حدود المودة داخل أسوار الكلية.. بينما استسلمت هي لمصيرها مع عشيقها الذي لم تعد لها القدرة على مقاومة غوايته.. مكتفية بالفترات التي تقف خلالها مع الفتى النحيف الخجول.. وكأنها تتطهر من وخزات الضمير التي كانت تلاحقها بعد كل ليلة من ليالى الدروس الخصوصية التي راحت تزداد فتراتها تدريجياً حتى أصبحت تستغرق الليل كاملاً.

تذكرت الفتاة تلك الأيام وقد تقلصت روحها بما يشبه الندم. كانت تشعر أن زياراته الشهرية لها بعيداً عن الزنزانة الضيقة التي تعيش بها كالمقبورة بمثابة عملية غسيل لروحها التي كانت تنتعش تدريجياً وهو ما دفعها لأن تحكى له عن كل شيء.. دون وجل أو خوف.. فلم يكن لديها ما تخسره. وفوجئت به يعدها بحياة جديدة بعد خروجها من السجن بعيداً عن كل هذه الهواجس. وصارت زيارته لها هى العيون التي ترى بها العالم الذي كان يبدو لها بعيداً بشكل لا نهائى.

*   *   *

فشلت محاولاتها في إقناع عشيقها بالزواج ولو حتى عرفيا.. فلم يكن لديه ما يعدها به سوى قدرته على إيلاجها لعدد فائق من المرات اكتشفت بعدها أنها، مثلـه تماماً، مصابة بشبق هستيرى لم ينجح أحد غيره في إخماد توهجه.

ولم يكن أمامها إلا أن تتخذ قرارها بالابتعاد عنه بعد أن فوجئت بأن الواقـف خلفها أمام الموقد وهى تعد القهوة ليس إلا زميلاً لهما في الكلية تسلل خلفها بمعرفة عشيقها الذي اختفي من الشقة فجأة.. تاركاً إياها وحيدة في مواجهة شهوة الزميـل وأحزانها وإحساسها القاسى بالغدر والخسة.

قررت منذ ذلك اليوم أن تمنح جسدها لأبطال جدد هم أساتذتها بالكليـة.. درأ للفضيحة وتهديداً للطلبة الذين كانوا يسمعونها تعليقات فاحشة، وقد نجحت في ذلـك إلا أنها لم تستطع أن تتوقف عن حالة الشبق الهستيرى.

بدا وجهها متغضناً بفعل كميات المساحيق التي راحت تغطيه بها، أما جسدها فقد ازداد تألقاً بفضل الملابس القصيرة والضيقة التي واظبت على ارتـدائها قبـل القبض عليها في إحدى شقق الدعارة مؤخراً.

*   *   *

كانت الحارسات والمسجونات يقفن خلف النوافذ ليلقين نظرة أخيـرة علـى النعش الذي خرج لتوه من بوابة السجن الضخمة لا يسير خلفه سوى شخص واحد بدت عيناه مذهولتين تماماً ومغرورقتين.

وعند المقبرة عاد النعش خالياً من جثة نحيفة كانت عينا الفتى المذهولتان هما آخر من شاهدها. ليس في ذلك اليوم فقط وإنما بعد ليال ثلاث هى التـي اسـتطاع احتمالها قبل عودته إلى طريق المقبرة ليلاً.. وحيـداً وممتلئـاً بالشـجن والحـزن والخواء. عندما نجح أخيراً في فتح المقبرة ظل يصرخ في فزع. من شدة نتانة

الرائحة وتشوه الجسد المزرق المنتفخ أمامه قبل أن يعود إلى الطريق. يركض وهو يصرخ كمجنون بما لا يفهمه أحد.

ولم يهدأ إلا بعد أن سمع هاتفاً يشبه صوتها وقد خطفه النعاس لنومه المتقطع يخبره بأن روحها تركت جسدها إلى القمر.. وأنها ستزوره مرة في الشـهر كمـا اعتاد أن يفعل معها أثناء السجن..

وهكذا بدأت طقوسه الليلية في الـرقص كالمجاذيـب فـي حضـور القمـر المكتمل..

"حب عمره الذي ضاع من بين يديه دائماً وأبداً".. هكذا أخبرنى القس الطيب "أبونا" الذي أضاف أنهم يفكرون في رعايته بالكنيسة قريباً.

أما زيارتي للكنيسة فقد جاءت بعد فترة من قراءتى الخبر الذي أرانـى إيـاه عشيقها – صديقي – مكتوباً في قصاصة ممزقة من جريدة يوميـة وهـو يرسـم تكشيرة حزن بدت لى مزيفة وأنا أحاول استرجاع ملامح الفتاة الشقراء التي عرفنى إليها باعتبارها خطيبته منذ عدة سنوات.

فارق التوقيت..

* أحد أيام يونيو 1994 (الساعة 4 بتوقيت جرينتش) (فارق التوقيت + 3).

.. فقرر أن يتمشى قليلاً حتى يحل موعده مع أحد أصدقائه في مقهى "أم كلثوم" بوسط البلد. أثناء مروره بمبنى "ماسبيرو" في اتجاه "التحرير" لاحظ فتاة طويلة تتهادى بخطوات واثقة في مواجهته. لم يستطع أن يرفع عينيه عنها.. وراحت ملامحها تتضح له بالتدريج كلما اقترب منها.. سمراء، شعرها الأسود الطويل الناعم معقوص في ذيل حصان طويل، ترتدي فستاناً قصيراً بدون أكمام يصل إلى ما فوق ركبتها. جسد متناسق وساقان ممتلئتان تعطيان انطباعاً بجمالها في تكوينها الانسيابي بسبب ارتدائها لحذاء أسود أنيق له كعب عال. من بين الأهداب الطويلة السوداء بفعل "الماسكرة" والحمرة على الوجنتين الممتلئتين نسبياً رغم طول الفك البارز قليلاً، لاحظ الأنف الدقيق ولون العينين العسليتين اللتين أخذتا تحدقان فيه بجرأة شديدة. أسرع بإنزال عينيه إلى الأرض، وإن اختلس نظرة جانبية سريعة إلى الساقين. اضطرب والتفت إليها فوجدها مازالت تنظر إليه بعد أن توقفت. خفق قلبه. فكر أن يعود باتجاهها وأبطأ من خطواته. التفت مرة أخرى. لاحظ أن بعض السيارات كانت تبطئ تدريجياً أثناء مرورها أمام الفتاة، وبعضها توقف تماماً فيما تشيح الفتاة بوجهها مبدية تبرمها وضيقها، فكر فيما يمكن أن يقوله لها. لم يسعفه ذهنه بشيء مناسب. اعتصر ذهنه طويلاً دون جدوى. لاحظ أنه أصبح أسفل "كوبري 6 أكتوبر" في مواجهة "ميدان عبد المنعم رياض" فقرر أن يعود دون أن يعرف ما سيقوله. وسع من خطواته قليلاً. عندما اقترب منها كان وجله قد اشتد تماماً.. اقتربت منها إحدى السيارات مندفعة قبل أن تعاود سيرها في

الطريق السريع. رجعت الفتاة عدة خطوات لتتفادى السيارة.. اصطدمت قدماها بالرصيف فسقطت في مشهد درامي. استعادت توازنها بسرعة، وقامت وهي تنفض التراب عن فستانها وساقيها. إلا أنها عندما اكتشفت تمزق ثوبها الضيق في المسافة التي كانت تغطي المساحة الجانبية من فخذها اليسرى شهقت دون إرادة منها واكتست عيناها بنظرة امتزج فيها القهر بالخجل.. وهى ذات اللحظة التي التقت فيها بعيني الفتى الذي مد إليها يده في مودة ظاهرة.

* أحد أيام يونيو 1996 (الساعة 4 بتوقيت جرينتش)

(فارق التوقيت + 4).

عند مدخل الحي الشعبي دخلنا سيراً على الأقدام عبر الأزقة المتربة الضيقة التي تتوزع حولها البيوت الشعبية ذات السقوف الخشبية والطابق الواحد بألوانها البيضاء التي تحول أغلبها بمرور الزمن إلى الأصفر أو الرمادي.

أمسك البنجلاديشى الأسمر النحيل بيدى لنعبر صوب أحد هذه البيوت. أدار المفتاح بالباب.. ودخلنا بسرعة. بعدما تأقلمت عيناى على الإضاءة الخافتة لاحظت في مواجهتى حماماً صغيراً له باب خشبى بدون مقبض يتوسط ردهة ضيقة. إلى اليمين يرتفع حاجز خشبى حتى السقف بطول الردهة ليفصلها عن الغرفة الوحيدة التي اكتشفت وقوفنا أمام مدخلها المغطى بستارة خضراء رخيصة مبرقشة ببعض الزهور لها لون أصفر باهت. ابتسم البنجلاديشى وهو يسألنى:

- وين فلوس.. أرباب؟

نقدته ما اتفقنا عليه. أطل برأسه داخل الحجرة حيث أدار حواراً هامساً للحظات قبل أن يعود مرة أخرى مبتسماً ابتسامته الفجة وهو يقول:

- أوكى أرباب.. هادا حرمه مال نيبال.. نمبر ون

سألته في تشكك:

- إنت وين يروح؟

- أنا في انتظار منى؟

- ليش في انتظار.. أنت يروح بره لا؟

- لا.. لا.. صديك.. بعدين واجد مشكل. الحين في نفرات ييجى منـى أنـا لازم في موجود. إنت سير داخل. ما خوف.

نظرت إليه مستنكراً.. ودخلت إلى الغرفة وأحكمت من إغلاق الستائر. كانت أرضية الغرفة مغطاة بموكيت أحمر قاتم انتشرت بعض البقع الداكنة على امتداده.

لم يكن بالحجرة أى شيء سوى "مرتبتين" وضعتا علـى جـانبي الحجـرة. وجدتها مستلقية في مواجهتي على المرتبة اليمنى أسفل جهـاز التكييـف. ملامـح وجهها دقيقة، وعيناها مسحوبتان قليلاً كما أغلب الأسـيويات. لـم تكـن جميلـة. لاحظت أن البقعتين اللتين تعلوان عظمتي الوجنتين داكنتين قليلاً عن لون بشـرتها الخمرى الشاحب. مددت لها يدى فنهضت وخلعت على الفور الفستان الذي كانـت ترتديه. وقفت أمامى عارية إلا من سروالها الأسود. لاحظت أن ملامـح وجههـا تحمل بؤساً شديداً. انحنيت كثيراً وأنا أضمها إلى صدرى. بدا لون جسـدها أكثـر بياضاً من لون وجهها، متناسقاً على نحوله. أشارت أن أخلع ثيابى ففعلت. وأشرت إلى المرتبة الأخرى على الجانب المحاذى للباب تخوفاً من تلصص البنجلاديشى في الخارج.

رحت أتحسس ظهرها وردفيها الناعمين فيما كانت تقلد ما أفعله بها. أنزلـت سروالى فجأة قبل أن تنزلق إلى المرتبة وهى تجذبنى إليها. كنت أشعر بالارتبـاك واللاجدوى والخوف لأنى لم أحضر معى واقي، ولم أكن متأكـداً مـن احتيـاجى لتجربة جنسية من هذا النوع. فكرت أن أتركها وأخرج. إلا أن ملمس جسدها الناعم تحتى جعلنى أطلب منها أن تولينى ظهرها.

قالت: لا.. لا.. أنا ما يسوى من ورا.

فأوضحت لها أننى أستهدف موضع خصـوبتها فاسـتكانت وراح شـعورى بالخواء يتصاعد تدريجياً..

* * *

في الليل على فراشى كنت أشعر بأرق شديد. تتردد قصـتها المبتسـرة فـي وعيى عن زوجها الباكستانى الذي كان يقـيم دون أوراق شـرعية مطـارداً مـن السلطات طوال الوقت حتى استطاع أخيراً أن يهرب إلى السعودية، وبعدها انقطعت أخباره.. "كيف أنا يحصل فلوس؟". "وين شغل بابا؟ أنا ما في فيزا!". "إنت واجـد زين. كلاش نفرات ييجى منى واجد مجنون. يصير واحد كلب".

ومن زمن بعيد تردد الصوت في أعماقى "يا ريتنى عرفتك من زمان. إنـت مش ممكن تتخيل الناس دول بيعاملونى إزاى؟.. أول ما يشوفوا جسمى بيتحولـوا لحيوانات. بينهشوا لحمى بأسنانهم وضوافرهم".

* أحد أيام يونيو 1994 (الساعة 9 بتوقيت جرينتش).

(فارق التوقيت + 3)

.. ولم تهدأ أنفاسها إلا بعد أن دخلت غرفتها وأغلقت الباب خلفهـا. خلعـت فستانها الأسود القصير. ارتدت تى شيرت أبيض طويلاً نسبياً وألقت بنفسـها إلـى الفراش.

بلغت حيرتها مداها. فاجأها المنتج بتأجيل مستحقاتها بضعة أيام. آخر ما كان لديها من نقود دفعته لسائق التاكسى الذي اصطحبها من "دار السـلام". فكـرت أن تركب إحدى السيارات وليكن ما يكون. ترددت خاصة ومازالت ذكـرى مغـامرة المنتج معها عالقة بخيالها، حين عرض أن يقوم بتوصيلها، ولكنه بدلاً مـن ذلـك انطلق بها إلى شقته في "المعادى". حاولت أن تبدو بسيطة "Free" كما قال لهـا، ولكنها لم تكن تتوقع إصراره الوحشى على مواقعتها. وخرجت من الشقة في حالة

إعياء شديد.. والآلام تحيط بكل المناطق التي امتدت إليها السجحات التي اتخـذت لوناً أزرق كئيباً في اليوم التالى. لكنها كانت تشعر بفخر لأنه لم ينل ما أراد.

لم يكن ممكناً أن تركب "أتوبيس" أو "مينى باص" بهذا الفستان الفاضح. عندما باغتتها السيارة المندفعة باتجاهها تراجعت مفزوعة حتى سقطت علـى الرصـيف. عندما نهضت أدركت تمزق فستانها فانهارت جالسة. وجدت أمامها يد شاب أسـمر فارع الطول تمتد إليها فناولته يدها مأخوذة. أوقف لها تاكسياً فركبت. أخبر السائق بمكان توجهها. نادته – لم تكن تعرف اسمه – فتحت الباب وأفسـحت لـه مكانـاً بجوارها.

سألته: إنت ساكن فين؟

- الهرم.

فقالت للسائق بنبرة واثقة: الهرم يا أسطى لو سمحت.

.. فلم يكن بإمكانها أن تعود إلى بيتها في هذا الوقت وفستانها ممـزق بهـذا الشكل. كما أنها لم تستطع أن تخبر الفتى أنها لا تملك أجرة التاكسى. ولم تفعل ذلك إلا بعد ساعات وهى نائمة بجواره عاريين تماماً. فيما راحت تستعيد ذلك الـدفء اللذيذ الذي كان يهزها من أعماقها للمرة الأولى في حياتها فيجعلها تشعر بنشوة لـم تعهدها من قبل ويجلها تطلق دون إرادة منها آهات مشبوهة تنتهى بشخرة قصيرة.

وراحت تردد لنفسها "يا ريتنى عرفتك من زمان. أنت مـش ممكـن تتخيـل الناس دول بيعملوا معايا إيه أول ما بيشوفوا جسمى. بيتحولوا لحيوانات عـاوزين ينهشوا جسمى بأسنانهم وضوافرهم". وتأوهت آهة عميقة انتهت – وسط دهشتها – بشخرة حادة وطويلة.

*** خارج التوقيت**

".. في مكان.. كأنه غرفة الفندق الباريسى الأنيقة. تدخل فتاة سمراء نحيفـة ترتدى "تى شيرت" أبيض طويلاً نسبيًا أحضنها وأختلس النظرات إلى النافذة أمامى.

تبدو وكأنها تطل على مدرسة أطفال. ألمح بعضهم ينظرون إلى فأنتحي بها بعيـداً عن النافذة، تحتضنني بحنو آسر. في لحظة تالية تبدو وكأنها مبتلة تمامـاً. أحـدق بعينيها العميقتين. تغيم ملامح وجهها لوهلة.. تنضو "التي شيرت" عنها في حركـة مفاجئة يبرز نهداها بلون الشيكولاته باللبن أمامي فأضمها. أغوص في نعومة دافئة. يتخدر جسدي فيما تجذبني هى إلى أمواج من الحنان لم أختبره من قبل. أبتعد عنها في انسيابية وأعود إليها في رفق فتجذبنى في تشبث حميم كأنما أعطيهـا إكسـير الحياة كأنما تعطينى..".

ندما نهضت تحسست البلل على سروالي. استرجعت الحلم الرائع. أوجعنـى قلبى لإدراكى أنه لم يكن سوى حلم. حاولت استعادة ملامح الفتـاة دون جـدوى. أدخل الحمام متثاقلاً وأنا أتمتم بما بدا كلمات شكر لصاحبة الحلم. تختلط مشـاعرى بين النشوة والشجن. أتذكر فجأة الموديل السمراء التي قابلتهـا أمـام "ماسـبيرو". "فاتن". أدافع رغبة دفينة وملحة – كعادتى في ليالى الغربة الطويلة – في البكـاء. تبدو لى غير مبررة، حتى وأنا أستمع إلى صوت "فيروز" القادم من جهة الكاسـيت الذي أدرته قبل دخولي الحمام.. "بعده حنا السكران.. على حيطان النسـيان.. عـم بيصور بنت الجيران.."

* مقتطف من صحيفة (تم بثه على "واس" أحد أيام ربيع آخر 1417).
(الساعة 4 بتوقيت جرينتش)
(فارق التوقيت + 4)

"تم إلقاء القبض على مجموعة من الوافدين الذين حاولوا دخول البلاد بشـكل غير شرعي بينهم باكستاني وثلاثة هنود.. تم إيداعهم بالسجن المركـزي تمهيـداً لمحاكمتهم وترحيلهم خارج البلاد".

*** خارج التوقيت:**

"..كأننا كنا في الاستوديو. المكان مليان، المخرج وبتوع التصـوير والمنـتج والبنات التانيين. فجأة كله اختفي وظهر واحد شكله فكرنى بالعيـال الصـغيرين. فرحت لما شفته. عينيه كان فيها حاجة غريبة. بتلمع شوية. مد لى إيده. رحت لـه زى المسحورة. فجأة لقيت نفسى في مكان عارفاه بس مش شايفه حاجة. مـاكنتش خايفة، لما قربت منه حسيت إنى عريانة. جسمه كان دافئ. حضننى بحنية. حسيت بحاجات غريبة أوى. أنا كمان كنت عاوزة أحضنه جامد. باسنى على رأسى. مش عارفة ليه حسيت إنى عايزة أعيط. حطيت راسى على كتفه. بعدها لقيـت نفسـى كأنى طايرة معاه.. سامعه حاجة حلوة.. مش عارفة.. آآههه خخخ".

استيقظت الفتاة من نومها مسحورة. حاولت جاهدة أن تتذكر ملامح الفتى دون جدوى. عندما خلعت ثيابها في الحمام ووقفت تحت المياه عاودتها لقطات من الحلم فاشتبكت نشوتها بشجن مداهم. أغلقت المياه عندما تسلل إلى أذنها عبـر الشـباك صوت غناء شجي لم تستطع أن تميزه بوضوح. انصتت فجاءها صوت "عدويـة" من بعيد ".. يا ليل يا باشا يا ليل.. إروى العطشان يا ليل"، فتحت مياه "الدش" مرة أخرى لتجهش في بكاء اختلط بصوت المياه المنهمرة على أرض الحمام.

4 سبتمبر 1998

وضعت القصة بجوارها.. وابتسمت، هؤلاء الرجال يظنون أنهم يعرفون كل شيء. ويعتقد كل منهم أنه الرجل الوحيد أو على الأقل الرجل الأول الـذي غـزا جسد هذه المرأة أو تلك.. يا ساتر! ولكن لماذا تجاوز وصف رائحتى أخبرنـى أن رائحتى أصابته بالنشوة. لم يصف قدمي اللتين قال لى شعرا فيهما. يظن أنه عرف عنى كل شيء. لم أستطع أن أفعل رغم أنه حدثني ببساطة مذهلة عن كل خصائص حياته لكن لم يكن بإمكاني أن أكرر أخطائي. كبحت رغبتي فـي الحكـي وبـدأت أغنى. كنت أريد أن أخبره عنه. حبي ووهمي الذي تركت أهلي لأجله ووقفت ضد

العالم دفاعاً عنه. عشت معه في تلك الحجرة الصغيرة في "المنيب" والتـي اصـبح لون حيطانها أسود بدلاً من لونها الأزرق الأصلى. على سرير وبجوارنـا طاولـة خشبية وموقد كيروسين وهذا كل شيء.. ومع ذلك كنت أراها كقصر؛ ففيها عرفت معنى الحب. واكتشفت جسدي. وعرفت عالماً جديداً حلمت به طويلاً. وعلى ذلـك الفراش.. يا ربنا! كيف يمكن أن أنسى ذلك؟ ولكنه تركني فجأة واختفي. أصـابتني الصدمة بالشلل. لم أعرف ماذا أفعل.. أصابني غم ثقيل لأنني كنت أشعر بـالعجز ولأنني وحيدة تماماً. حاولت أن أحصل على عمل هنا أو هناك. وعنـدما وجـدت عملاً كسكرتيرة أخيراً؛ ظهر صاحب الحجرة الحقيرة يطالبني بالإيجار وعندما بدأ في مساومتي تركت الغرفة مجبرة.. آآه.. هذه الأيام السوداء.. مـن التجـول فـي الشوارع وسط الليل والجلوس في المقاهى ومداخل الفنادق.. سكرتيرة.. وبائعة في محل.. ونادلة في مقهى وأخيراً موديل.. وكله أوسخ من بعضه.. لكن وصفه لـى في القصة كان جميلاً.

"لم يستطع أن يرفع عينيه عنى.. وكنت أتبين ملامحه بالتدريج كلما اقتـرب منى.. أسمر.. شعره أسود ناعم معقوص في ذيل حصان طويل. لم يكـن يرتـدى شيئاً سوى سروال بيكينى أزرق. جسد متناسق وساقان ممتلئتان تعطيـان انطباعـاً بجمالهما في تكوينهما الانسيابي وقوة الجسد الذي تحملانه. أما رائحته فقد أثارتني بشكل مدهش. كنت أشعر بالدوار بسبب ما كان يفعله بجسـدي.. بالإضـافة إلـى زجاجتى البيرة اللتين شاركته شربهما. لم يترك جزءاً من جسـدي دون أن يمسـه بشفتيه. أشعل رغبتى أكثر فيما رائحته الحمضية تعبق بأنفي. ركبـت فوقـه قبـل الأورجازم.. كانت هذه هى الطريقة الوحيدة التي يمكننى بها أن أعبر عن رغبتـى وأطفئ..".

ظلت تحدق بالأوراق لوهلة.. ثم وضعت الصحيفة التي لم تقرأ منها سـوى "حظك اليوم" فوقها.

*** مقتطف من الصحيفة:**

"قررت ملكة "نيبال" زيارة الفتاة التي تعرضت للاغتصاب الوحشـي أمـس الأول في المستشفي. إلا أن الفتاة بصقت على الملكة فور دخولها باعتبارها رمـزاً للحكم الإقطاعي الذي يسيطر على البلاد. أمرت الملكة بإعدامها فوراً".

* ختم جواز سفر: هيئة ميناء القاهرة الدولي – دخول – 2 أكتوبر 1997.

(الساعة 7 بتوقيت جرينتش)

*** مقتطف أخير:**

"ألقت قوات شرطة الآداب القبض على إحدى فتيات الإعلانات فـي وضـع مخل بأحد البيوت المشبوهة والموضوعة تحت المراقبة منذ فترة".

بدا الفتى مندهشاً وهو يسير وسط الزحام والصخب وضوضـاء السـيارات. ينظر إلى الساعة في يده. تشير إلى الحادية عشرة.. يضبطها على التاسعة ولسـان حاله يردد.. "على الأقل كسبنا ساعتين زمن!"

(الساعة 2 صباحاً بتوقيت جرينتش)

8 سبتمبر 1998